وزارة الثقافة



الهيئة العامة لقصور الثقافة

اصوات أدبية

٨٦

هى أمـرأة

قصص

جمعة محمد جمعة

الاثنين ٢٦ ديسمبر٩٤

المراسلات: باسم مدير التحرير على العنوان التالى
١٦ أ شارع أمين سامى- القصر العينى-القاهرة- رقم بريدى ١١٥٦١

اصـــوات أدبـــية

سلسلة إسبوعية

تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة

الغلاف للفنان كمال عبده

الإهـــداء

إلى كل من قدم لى وردة ..

كلمة طيبة ..

....

....

جمعة محمد جمعة

التحدى الخطر

ذات يوم اتضح أن لأسرتى أقارب زارونا فى المساء. قالت أمى هامسة فى أذنى إنهم أقاربها من بعيد.. تعرفت يومها على ابن لهم يضارعنى فى السن، ومعى فى نفس المرحلة الدراسية.. لمست لأول وهلة الفرق الشاسع بينى وبينه.. لمست النعمة والرفاهية ظاهرتين عليه بوضوح.. رأيت ملابسه الأنيقة الغالية الثمن.. رأيت التغذية السليمة المفيدة بادية فى جسده المتناسق الممتلئ.. وفى وجهه المستدير النقى الأبيض.. وفى لغته المنزهة عما ألفته فى حارتنا.. صحبته إلى سطح بيتنا ولعبنا الكرة.. لعبت حافى القدمين ولعب بحذائه الأسود اللميع.. لعبت بالجلباب ولعب بكامل ملابسه الأنيقة.. عندى بنطلون وقميص لكنهما فقط للمدرسة أو لزيارة هامة.. احافظ عليهما محافظتى على روحى الغائرة فى أعماقى. أتطلع من العمق فى أطى إلى صاحبى الجديد.. تذكرت حذائى المخروم من باطنه وضرورة الذهاب به ملى عم حسنين لتركيب نصف نعل بخمسة بروش.. تذكرت هيئتى فى المرآة.. الأنيميا صبغت وجهى بالاصفرار، والشحوب٣ متناثر على شكل بقع سوداء..

صقل سيف التغذية قوامى بالنحافة.. طلب صديقى مصطفى أن أزوره فى منزلهم.. وعدته بالزيارة.. وودعته وداعاً حاراً.. فرحت كثيراً وأمى تقص على حياة أقربائها الأغنياء..

* * *

حلمت بالزيارة كثيراً.. تخيلت حياة اليسر التى ينعم بها مصطفى.. عرفت من أمى أنه يسكن مع أسرته شقة فاخرة بالطابق الثالث من عمارة شاهقة.. تطل على شارع عمومى زاخر بالحركة.. يعمل والده مفتشاً فى وزارة التربية والتعليم.. أخذنى مصطفى إلى حجرته.. رأيت بالحجرة سريراً أنيقاً تغطيه ملاءة مطرزة بالرسومات الزاهية الألوان.. وإلى جوار السرير مكتب فخم يضع مصطفى فيه أدواته وكتبه وكراساته.. وأيضاً يوجد مقعدان من الفوتيه.. ويغطى الأرض سجادة جميلة تغوص فيها القدم.. عرفت أنه يذهب إلى المدرسة فى سيارة مع أبناء سكان العمارة.. وأخبرته بأنى أقطع المسافة سيراً على الأقدام مع بعض الزملاء.. نتسلى بقزقزة اللب الأحمر المخلوط بالشطة.. نعاكس فتيات المدارس.. نركل بأحذيتنا الحجارة طوال الطريق كالكرة.. نتعارك أحياناً مع بعض التلاميذ مثلنا يتعرضون لنا لأى سبب من الأسباب.. وكان بشغف يطلب منى أن أقص عليه المزيد..

بدأنا نستذكر دروسنا معاً كل ليلة مع بداية شهر رمضان..
كنت أحمل كتبى بعد تناول الأفطار وأذهب إليه، وقد طاب لى الاستذكار عنده.. ففى حجرته الإضاءة الكهربائية عوضاً عن اللمبة الغاز.. لديه المكتب عوضاً عن «الطبلية».. والمقاعد المريحة.. والخادمة تعد لنا الشاى ليساعدنا على السهر كلما احتجنا إليه.. وهناك والده يساعدنا فى اللغة الانجليزية المعقدة والتى كنا نكرهها ونكره دراستها ومدرسيها.. أحببت أمه حباً جماً وقد لمست حنانها المتدفق.. واهتمامها بى.. خاصة وهى تقدم لى كل ليلة ما لذ وطاب من حلوى شهر رمضان التى لا تزور بيتنا منذ عدة سنوات. وقبل موعد السحور أغادر البيت منتقلاً إلى بيتى.. أتناول سحورى المتواضع.. ثم أعاود الاستذكار وأنا أتطلع إلى الجدران المشققة بغير طلاء فى ألم..
أنصت إلى زفرات إخوتى المكدسين فى فراشهم بغصة حزن..
الدخان الأسود يطلى بطن زجاجة اللمبة.. أخلعها.. أرشها من الداخل ببعض الماء أنثره رذاذاً بفمى.. أمسحها.. تعود نظافتها فتغرينى بالاستمرار فى الاستذكار.. يشرق النهار وأنا منكب على كتبى ألتهمها فهى ذخرى لتغيير حال البؤس الذى نحياه.. أحمل كتبى وأستعد للذهاب إلى المدرسة.. يفتش أبى فى جيوب حلته الكاكى القديمة حتى يعثر على قرش

يعطيني إياه، وأنصرف..

ارتاحت نفسي كثيراً في المذاكرة.. لم أعد أتشاجر مع إخوتي في اقتسام «الطبلية» للمذاكرة.. لم يعد أحدهم يرفع صوته بالقراءة فأحاول منعه فيزداد عناداً معتمداً على حقه في المذاكرة مثلي.. لم أعد أترك كتابي لأعد لنفسي كوب الشاي أو للبحث عن الشاي والسكر وغالباً لا أجدهما.. فقد كان أبي يبيع حقنا في التموين للبقال لقصر ذات اليد..

* * *

أقبل الامتحان، وأدنياه، وبدأت أعاني الخوف الذي سيطر على نفسي.. الخوف من الرسوب. فلن يتيسر لي إعادة السنة.. هددني أبي بذلك أكثر من مرة.. رغم أني لم أرسب مرة واحدة طوال دراستي.. بدأت الأحلام المزعجة تغزو نومي كثيراً.. يسمعني أبي أهذي بكلام غير مفهوم.. حاول أن يعرف أسباب هذا الهذيان فلم أخبره بمخاوفي.. كنت أسأل نفسي كثيراً: «أينا أحق بالنجاح؟ أنا أم مصطفى؟» كنت أجلس وأذاكر دروسي وحدي حتى يخرج آخر مدرس يحضر لمعاونته.. كان لكل مادة ندرسها مدرس خصوصي.. أبعد ذلك أطمع في النجاح معتمداً على مجهودي وإمكانياتي العقلية والفكرية.. كنت على ثقة من سلامة إجاباتي.. ومع ذلك أحلم بالخوف من

الرسوب.. وأثور على المصححين.. وأطالب بإعادة تصحيح أوراقى.. كان شبح الرسوب والثورة هما هذيانى كل ليلة.. هذيانى الذى تحول إلى صراخ وبكاء معظم الأحيان..

وبعد طول معاناة ظهرت النتيجة.. نجحنا سوياً.. تبادلنا التهنئة.. التقينا أكثر من مرة حتى جاء يوم سحب استمارات النجاح.. عرفت مجموع درجاتى وذهبت إلى مصطفى لأعرف مجموع درجاته.. كان الفضول دافعى.. كنت أرغب رغبة أكيدة فى الموازنة بين مجهودى ومجهود مصطفى بمعاونة عدد من المدرسين لا بأس به.. سألتنى والدته عن مجموع درجاتى فأخبرتها به.. وسألت بدورى عن مجموع درجات مصطفى وكانت أسبق منه فى إجابتى.. كان الفارق بينه وبينى ثلاثين درجة.. عقبت أمه قائلة وقد اعترتنى غصة لمحت أم مصطفى أثرها على وجهى فسألتنى:

- ماذا بك ؟

- لا شئ ..

- تبدل لونك واصفر وجهك.. برافو عليك نجاحك بدون مدرسين خصوصيين..

رأيت فى قولها بعض المواساة.. حمدت الله أنى اجتزت الامتحان وحدى ونجحت، الفارق لا يتعادل مع الجهد المبذول

معه أضعاف أضعاف جهدى.. كان ينبغى عليه أن يفوز بالمركز الأول فى المدرسة على الأقل.. لا أن يزيد عنى بثلاثين درجة فحسب..

* * *

كان على أن أختصر الطريق.. فالتحقت بالتعليم الفنى.. والتحق مصطفى بالثانوى العام.. ذهبت يوم تقديم الأوراق إلى والده ليتشفع لى فى القبول.. حاول إثنائى عن التعليم الفنى وإلحاقى بالتعليم الثانوى العام.. كنت أتمنى ذلك.. لكنى كتمت أنفاس أمنيتى وأعلنت رغبة ليست لى فى التعليم الفنى.. فقال بلا حيلة:

– أنت ورغبتك.. خسارة فأنت ذكى ومجد.. أولى بك التعليم الثانوى خاصة وأن مجموعك يدخلك أحسن مدرسة ثانوية..

ثم أخبرنى بقبولى فى التعليم الفنى دون وساطته.. كان مجموع درجاتى شفيعى فقبلت.. دخلت المدرسة وكنت أصغر طلابها.. ذهبت أيامى الأولى بالبنطلون «الشورت» ولما لم أجد غيرى يرتدى «الشورت» طالبت أبى بشراء بنطلون طويل.. فكر أبى طويلاً.. ثم أخرج حلة له قديمة وأخذنى إلى الترزى ليفصلها على مقاسى.. وألغيت من حياتى البنطلون «الشورت» الذى كنت أحبه جداً..

* * *

فرقت بينى وبين مصطفى الدراسة الثانوية.. لكنا كنا نلتقى أيام العطلة الأسبوعية وفى الإجازات..

كان الحال هو الحال.. تغير قليلاً مع بداية العام الثانى.. فقد استلمت من المدرسة زى الفتوة.. بنطلوناً طويلاً وقميصين، حذاء وطاقية للرأس.. كان يوم سرور عظيم فى بيتنا.. انشرح أبى انشراحاً لا مثيل له حينما علم باستلامى لهذه الأشياء.. فقد انزاح عن كاهله هم ضخم، وعبء كبير. قضيت أعوام الدراسة بزى الفتوة.. أنعمت والدة مصطفى على بزى ابنها لعدم حاجته إليه.. جار أبى على منحتها وأخذ منى حذاء مصطفى بدلاً عن حذائه القديم الهالك..

* * *

كنت كثيراً ما أنقم على حياتى.. وعلى التعليم ورغبة أبى فى تعليمى.. أنقم على الفقر الذى يخط لنا مستقبلنا.. أشعر بالضآلة وسط زملائى فى المدرسة.. كل يوم بزى الفتوة.. لا أملك فى جيبى سوى قرش واحد.. لا أغير ولا أبدل ملابسى.... لا أغير الحذاء.. لا أتباهى بساعة فى معصمى.. ولا بنقود فى جيبى.. أتسلل داخلاً إلى المدرسة وأتسلل خارجاً منها كلص.. وماذا فى المدرسة يمكننى سرقته غير التعليم.. خفف من وطأة

همومى إنشاء شارع جديد قريب من الحى.. اصطفت فيه مصابيح الإنارة.. انتقلت للمذاكرة على ضوئها والتقيت بعدد من الطلاب الفقراء مثلى.. وبدأ كل منا يتخذ مجلسه تحت عامود من أعمدة الإنارة ونظل نذاكر حتى مطلع النهار.. ولم يغب عن فكرى نعمة الاستذكار فى بيت مصطفى..

* * *

سبع سنوات مريرة مضت قبل أن أتبين الحقيقة التى زلزلت كيانى.. منذ كنا سوياً أنا ومصطفى فى الشهادة الإعدادية.. وسلك كل منا طريقه تبعاً لإمكانياته وظروفه.. انتهيت من دراستى.. والتحقت بأول عمل لى.. عامل فى مقهى وذلك بعد أداء امتحان الدبلوم مباشرة.. إذ كانت أسرتى تكاد تموت جوعاً.. فإخوتى جميعاً فى مراحل التعليم المختلفة.. وأنا الوحيد الذى انتهيت منه باختصارى الطريق.. عملت فى المقهى لأعاون أسرتى أية معاونة.. ولعدم قبولى فى أى عمل حكومى لصغر سنى إذ كنت أبلغ السابعة عشرة.. قضيت عاماً فى المقهى.. ثم التحقت بعمل حكومى.. لم يكن جديداً على.. ولم يحدث أى تغيير فى حياتى..

ذهبت لتهنئة مصطفى بحصوله على البكالوريوس.. تلقانى فرحاً مستبشراً.. جلست وكان يعد أوراقه لتقديمها إلى إحدى

الهيئات.. لمحت استمارة نجاحه فى الشهادة الإعدادية.. شد فضولى إليها الأنظار.. وتعلقت عينى بها.. قلت مشيراً إلى صورته:

– كنا أطفال يا مصطفى..

ابتسم قائلاً وهو يقدم لى الصورة:

– وكنا سذج أيضاً..

قلبت الاستمارة بين يدى.. شدنى الفضول إلى الثلاثين درجة الزيادة.. وفى أى المواد حصل عليها.. وكانت المفاجأة.. كانت الصدمة التى هزت فؤادى ورجته رجاً عنيفاً.. أذهلت عقلى وتفكيرى.. فلم أنس يوماً حصوله على درجات أعلى من درجاتى.. ولم أنس مطلقاً تهكم أمه علىّ.. ارتطمت كل الذكرى بالحقيقة الماثلة بين يدى.. كان مجموع درجاته الحقيقى أقل من مجموع درجاتى بعشر درجات.. تطلعت إليه والاستمارة شاهد إثبات بين يدى، ودليل قاطع على كذبه وأمه علىّ.. رأى نظرتى المستفسرة فسارع قائلاً:

– لا تتهمنى بالكذب.. أعرف.. اعذرنى.. خجلت يومها أنَ أطلعك على مجموع درجاتى الحقيقى..

لم أشعر بأى نوع من الكراهية تجاه مصطفى رغم أنى أكره من أعماقى الكذب والكذابين.. لكنى كرهت فيه كذبه.. وتغلب

حبى لأمه على رغبتى فى التشفى منها بعد كل هذه السنين..
لكن سعادتى بنفسى وبتفوقى غلبت على كل رغباتى.. ودعته فى
ذلك اليـــوم وأنا أقـــارن بينى وبينه.. رغم إمكانيـــات غناه
وإمكانيات فقرى.. رغم الجو المهيأ له فى البيت والعناية الفائقة
به والجـو الخانق المظلم المحيط بى.. والإهمال الشديد الذى
أعانيه.. والتهديد والوعيد. والأحلام المزعجة.. رغم كل ذلك
تفوقت عليه.. شعرت بأن التفوق ميزة مثل الذكاء.. ومثل
النجاح.. ورجحت كفة تفوقى على كفة مصطفى بما فيها من
إمكانياته وإمكانيات أسرته.. ولم يكن هناك شئ أجله إلا
إحساس والده بذكائى.. وتفوقى.. ورغبته الصادقة فى إثنائى
عن التعليم الفنى فطريقه مسدود.. كنت كمن حصل على جائزة
تفوق بعد اطلاعى على حقيقة تفوقى.. وتضاءلت السنين السبع
العجاف التى مرت بى.. كنت خلالها أطلب الموت فى كل
لحظة.. أطارده.. أتوسل إليه.. لكنه كان ينأى عنى.. ولم يغب
عن بالى فى أى لحظة اشتغالى بعد تخرجى عاملاً فى مقهى..
أعمل فراشاً ونادلاً وخادماً للعربيد ابن صاحب المقهى الذى
كان يتناول الخمر كل ليلة وعلى أن أرافقه إلى بيته مخموراً..
كنت أعمل خادماً يرسلنى صاحب المقهى إلى منزله محملاً
بالفاكهة والخضر.. كان عاماً مظلماً امتد ظلامه فشمل سبع

سنوات من عمرى.. عاماً انحرفت فيه.. شربت الخمر.. تعاطيت المخدرات.. عاقرت الندماء.. عرفت ألواناً شتى من المتعة.. وما أن التحقت بالعمل لم يجد فى حياتى جديد..

* * *

كانت وقفة كبرى مع نفسى.. وجدت أنه من الضرورى تغيير أسلوب حياتى وسط كل همومى وأحزانى ويأسى وضياعى.. وقد بدا لى أنى كنت يوماً متفوقاً على صديق عمرى مصطفى..

وجدت فى الكتب ملاذاً وحصناً للهروب من حياتى المرة.. تحكمت فى إرادتى وكففت عن كل الموبقات التى تعلمتها.. ومارستها.. غرقت إلى أذنى فى القراءة.. صار الكتاب صديقى الوفى.. رفيقى فى كل زمان ومكان.. وأخذت أرتاد المكتبات العامة أنقب عن نفيس كتبها.. وأشترى ما أستطيع شراءه.. وبدأت أعبر عن مكنون ذاتى.. كتبت بعض قصائد كانت مثار دهشة بين أصدقائى.. ففيها تجربة مرة ينقلها أب إلى ابنه.. ولم أتزوج بعد.. ولم أنجب هذا الابن.. وكانت قصيدتى مثار سخرية وهزؤ من مصطفى الذى رأى فيها تفوقاً جديداً عليه.. أخذ يضعضع من عزيمتى.. ويحاول بمعاول النقد الهدامة هدم أمل راود نفسى.. وبدا أسلوبه معى وكأنه يقول لى « أين مكانك يا صعلوك بين الملوك».. ويعدد لى مواهبه.. وشتى معارفه..

وأنه قد أهلته الأيام لأن يكون فيلسوفاً.. وقد حاول بشتى الطرق اكتساب ملكاتى الجديدة.. ويحقق لنفسه تفوقاً على تفوقى.. انهمك فى القراءة.. وكانت لى مع مصطفى وقفة استعدت فيها كل ما مضى من حياتنا معاً.. وبات واضحاً جلياً أنه يكن لى حقداً دفيناً.. وحسداً وغيرة.. وكأن بيننا ثاراً قديماً.. يتحين الفرصة لينتقم منى.. يحاول قدر استطاعته تحطيمى.. فازددت إصراراً على النجاح.. وتصميماً على التفوق.. وقررت المضى فى طريقى الجديد بلا هوادة..

* * *

رب شر فى حينه يكون خيراً فى غير حينه.. ورب يأس يكون من دعائم نجاح ساحق وأمل كبير.. ورب قبس من نور ضئيل يغلب دياجير الظلام ويقهرها.. وضح الطريق أمامى.. ووقفت على نوازع نفسى وروحى ولم يكن من بينها الثأر من مصطفى.. ولم يكن من بينها تحطيمه وإنما انصبت كلها على النضال لبلوغ المجد.. الخلود فى الحياة الدنيا والآخرة.. وبدت لى عقدة مصطفى التى كرس لها حياته، الفارق بيننا، تفوقى فقيراً وعدم تفوقه غنياً.. ورغم علاقتى الحسنة الطيبة به إلا أنه كان متقلباً.. أيقنت أن عقدته لن تموت إلا بمرآى كومة من الأطلال.. وأخذ الصراع بيننا يأخذ خطوات واسعة.. تقدمت

لخطبة فتاة من الأقارب.. فأسرع إلى فتاة وخطبها لنفسه.. ورغم أنى دعوته إلى حفل خطوبتى.. وأريته الصور.. رغم ذلك فوجئت به ذات يوم وفى إصبعه خاتم الزواج.. وعرفت أن بعض أصدقائنا شاهدوا صور حفل خطوبته ولم أرها.. نقل إلى أصدقائى حسده وحقده فهززت رأسى مؤمناً على ما أحسوا به من حديثه ومن تصرفاته..

ولأول مرة يتساوى فشلنا معاً.. فقد فشلنا فى تشييد حياة زوجية سعيدة.. انفصل كل منا عن خطيبته.. ورغم ذلك أشعرنى بتفوقى فى إنهاء موضوعى إذ كان يردد دائماً:

- يا لك من رجل.. أنهيت موضوع خطوبتك دون تدخل أحد.. أما أنا فالجميع يتحكمون فى مصيرى..

تداولت موضوع زواجه الجلسات والمفاوضات العائلية.. وأهينت كرامته من أهله وذويه.. وتعرض للإذلال والمهانة من أسرة خطيبته ومنها ذاتها.. وعانى التحقير من كل من يعرفون الموضوع.. وتأرجح بين شتى الآراء وشتى التوفيقات التى لا يرضى عنها ولا يقبلها.. وفى مرة أخرى قال:

- كنت أشجع منى فى إنهاء أمر لا تريده..

كان من حقى أن أنشرح وأفرح.. وقد نجحت فى إثبات كيانى وجودى كشاعر.. وكيانى ووجودى كإنسان مستقل ذى

شخصية واضحة المعالم.. ومازلت على عهدى معه أكن له كل وفاء وإخلاص.. وصداقة نزيهة لا تشوبها شائبة.. كنت حزيناً لأجله.. متألماً لتألمه.. أحاول إخراجه من اليأس إلى الأمل.. ومن العدم إلى الوجود..

وفى منتصف ليلة من الليالى جاء والده إلى منزلنا.. كانت زيارته مفاجئة فلم يحدث أن زارنا من قبل إلا فى الأعياد والمواسم والمناسبات.. استقبله أبى وسأله متوجساً:

– خير إن شاء الله..

– كل خير.. فإبنى مصطفى يريد ابنك..

لم يخامرنى أى توقع فيما رأيت وفيما عرفت.. فقد وجدته جالساً فوق فراشه يدخن بشراهة.. يقضم أظافره بأسنانه.. وكنت قد عرفت من والده بمحاولته الانتحار.. كرد فعل لانفصاله عن خطيبته.. فقد السيطرة على نفسه فتناول عدداً كبيراً من الأقراص.. انهلت عليه بالتوبيخ والتأنيب لإقدامه على مثل هذا الأمر.. محاولاً إخراجه من يأسه وفى نهاية الليل دلفت إلى الفراش لأنعم بساعة نوم واحدة وقلت:

– من باعك بعه بأبخس الأثمان.. من أهانك أهنه.. انظر دائماً إلى المستقبل.. مادمت نظيف القلب والنية لن تجزى إلا بالخير داماً..

تطلع إلى وجهى مندهشاً كمن أدرك وقوفى على بيت الداء فى حياته.. وكأنى أقول له :اخلص ضميرك لله وعش حياتك بقلب نظيف..

قضيت عدة أيام مع مصطفى هنيئة.. نستعيد الماضى وذكرياته.. أعود من العمل فأجده فى انتظارى.. نتناول الغداء ثم الشاى أو المثلجات.. نتحدث.. نستمع إلى المذياع.. نشاهد التليفزيون.. نخرج للتنزه.. أقرأ على مسامعه بعض قصائدى.. حمدت الله على خروجه من المحنة سليماً، مصراً على الاستمرار فى الحياة مهما كانت الظروف والمحن والآلام.. فحياة الإنسان أقوى من أى شئ.. وعدت ثانية إلى بيتى.. إلى معاونة أسرتى.. ومساعدة إخوتى فى دراستهم.. فكان كل همى أن يتموا تعليمهم دون معاناة ما عانيت.. ودون مكابدة ما تكبدت من مشقة وآلام.. وألا يختصر أحدهم طريقه..

لم أشعر قط بمرور السنين وهرولتى الي الشيخوخة الا حينما فوجئت ذات يوم بضيوف يطرقون باب البيت .. استقبلتهم وتعرفت اليهم .. وعرفت ماجاء وا يطلبون .. تطلعت الى أختى سوسن ورأيت لأول مرة سنوات عديدة فرت من بين أصابعي .. فقد كانت حتى الأمس القريب طفلة تدرس فى المدرسة الاعدادية .. كبرت الطفلة قليلا وانتهت من دراستها

الثانوية .. وفضلت البقاء فى البيت .. رأيت عمرى الضائع فى نضوجها .. وفى قوامها .. وفى أفكارها .. وكان لزاما على أن اعترف بوجودها الكامل .. وأنا أطالبها برأيها فى الزواج .. تركت لها حرية التفكير فى تقرير مصيرها .وانصرف الضيوف على موعد .. دلفت الى حجرتى وخططت قصيدة حازت القبول ونشرت بالصحف وأذيعت بالاذاعة عن المشيب المبكر .. وكانت سببا فى تسليط الاضواء على انتاجى الشعرى ..

* * *

كنت بين الحين والحين أتلقى رسائل صديقى مصطفى، وكان قد تعاقد للعمل خارج الوطن منذ سنوات.. تنبئنى رسائله بحياته الجديدة المريحة.. خاصة وأنه يعمل بالتدريس.. يحصل على دخل ضخم.. وعرفت أنه اشترى سيارة وثلاجة وتليفزيون.. وأن له رصيداً ضخماً فى البنك.. وتلقيت فيما تلقيت منه طرداً أرسله مع زميل له.. ضم معظمه أقمشه وهدايا لأمى وأختى.

كان كل ما أتمناه له أن يكون قد تخلص من عقدته.. وأن أجد فيه إنساناً آخر مقبلاً على الحياة السعيدة.. كنت قد قطعت خطوات واسعة نحو مستقبل عريض باسم.. متسع لما فى نفسى من طموح.. اقتربت أكثر من المجد الذى تمنيته

وحلمت به. صرت شاعراً معروفاً.. وتيسرت حياتى وحياة أسرتى.. تخرج إخوتى وشق كل منهم طريقه.. أصبح لأسرتنا كيان.. وازدادت أواصر الود والألفة بين أسرتى وأسرة مصطفى وقد تقارب مستوى الأسرتين.. كانت لنا شقة واسعة تضم خمس حجرات.. مجهزة بكل الكماليات.. ننعم بالحياة الطيبة.

* * *

ذات يوم تلقيت برقية تنبئنى بعودة مصطفى.. وفى الموعد المحدد أعددت نفسى لأكون فى استقباله بالمطار كما كنت فى وداعه يوم سفره.. كان شوقى إلى رؤياه إنساناً آخر يسيطر على عواطفى وعلى أفكارى.. أتخيله وافر الحيوية والشباب.. وافر الغنى.. متأنقاً فى أبهى زينة.. باسم الثغر.. نقى السريرة.. تخيلته وقد تخلص تماماً من مشاعره التى لمستها منه طيلة السنوات الماضية.. تخيلته رجلاً كامل الرجولة.. تخيلت عهداً جديداً من الصداقة ولم يعد بيننا فارق.. وركبت سيارتى متوجهاً إلى المطار تصحبنى تخيلاتى وأشواقى..

جلست فى الكافتيريا أتناول الشاى. تراءى لى مصطفى فى صورة أخرى غير التى رأيتها قبل مغادرتى البيت.. تراءى لى بوجه مجعد.. وشعر أشيب.. ونظرة خبيثة.. خاصة وأنا أتخيله

معى فى سيارتى.. أحدثه عن جهادى وكفاحى.. وما حققت من شهرة ومجد.. طردت سريعاً خواطرى وقمت إلى شرفة المطار، ولم يبق على وصول الطائرة إلا وقت قصير.. وفجأة رأيت أختى سوسن تقف فى مكان قصى. لمحتها بطرف عينى وابتعدت عن مرمى بصرها.. دار رأسى.. تحطمت كل أفكارى.. لمحتها وأسئلة عديدة تطن فى رأسى.. لماذا جاءت؟ كيف خرجت دون استئذانى؟ .. من جاءت تستقبل؟ لماذا هى هنا؟.. لماذا هى هنا؟.. أسئلة عديدة دون إجابة.. علامات استفهام تتضخم وتبرز.. نسيت تماماً مصطفى.. ونسيت استقباله.. وانكب اهتمامى كله على مراقبتها وتتبع خطواتها.. أراها ولا ترانى.. هبطت الطائرة أرض المطار.. تعجبت أكثر لعدم عثورى على أحد من أفراد أسرته.. برز مصطفى على سلم الطائرة.. جال بعينيه مفتشاً عن مستقبليه وهو يعرف من هما.. أنا وأختى.. ظل طوال سنوات غربته يدبر مكيدته.. يرسم خطته للثأر.. لا.. أنا لا أصدق.. سوسن أختى.. ربما أبرق لها ونسيت أن تخبرنى.. ربما.. فجأة تبدد كل شئ.. غامت الدنيا فى عينى وأنا أراها تلقى بنفسها بين ذراعيه، يحيط كتفيها بذراعه وهما ينطلقان خارج المطار.. عيناه تنقبان عنى بين جمهرة المستقبلين دون ريب.. لكنى سأفوت عليك هذه الفرصة الأخيرة

يا مصطفى.. لم أستطع قيادة سيارتى.. استأجرت تاكسياً وعدت سريعاً إلى البيت.. يحدونى أمل كبير أن أجدها لأكذب ما رأت عيناى.. لم أجدها.. اندفعت كالمجنون إلى حجرة نومها.. قلبتها رأساً على عقب مفتشاً عن ماذا؟ .. لا أدرى؟.. أريد شيئاً يدلنى على معنى هذه العلاقة.. منذ متى وجدت؟.. ولماذا؟.. مزقت هداياه التى أرسلها إليها.. وقعت يدى على رزمة خطابات.. رزمة خطابات قصت لى كل شئ.. عرفت قصة حب بينهما.. عرفت سر رفضها الزواج بعد مماطلة وتسويف.. عرفت مؤامرة مصطفى الدنيئة على كلينا، خدعها للثأر منى.. اندفعت سوسن فى سذاجة وراء خدعته..

* * *

ازداد جنونى حين علمت منها القصة بحذافيرها.. حاك لها الأمنيات ثوب زفاف سماوى اللون، مزركش بنجوم موشاة من خيالات وأوهام، وحين سافر ظل يبعث إليها برسائل الوجد والهيام، يمنيها بحياة سعيدة فى عش الزوجية، ماذا يريد؟، مطلوب منى بالطبع الموافقة، الخضوع، مطلوب منى أن أقدمها له على طبق من فضة، ثم ماذا بعد؟ هل..؟ أبعد كل هذه المقاومة؟ وكل هذا النضال ينجح مصطفى فى تحطيمى.. أبعد كل هذا الصراع طوال السنين يجد فى جسدى ثغرة يدس فيها

خنجره المسموم.. لم يستطع التفوق ونجح في تحطيمي، حطم كل شئ، هدم كياني من جذوره، دبر مؤامرته وشاركته أختي، دمي ولحمي، كرامتي وكينونتي، طعن مصطفى تفوقي وقوض مجدي الذي أفنيت العمر في تشييده، وجدت نفسي بلا عقل، بلا تفكير، أغلقت بابي وانكفأت أبكي وأدون بدموعي قصائد ديواني الأخير، تتوالى قصائده كسيل جارف، تنهمر الكلمات من فمي أكثر انهماراً وأدون بدموعي قصائد ديواني الأخير ، تتوالى قصائده كسيل جارف ، تنهمر الكلمات من فمي أكثر انهماراً من دموعي، دموعي التي لا يلاحقها قلمي، توقفت طويلاً أمام آخر قصيدة، وأجهشت بالبكاء..

جاء مصطفى هذه المرة ليغزوني في عقر داري، البيت على وشك الانهيار، الجميع يزفون إلى بشرى هذا الزواج الميمون، أنا وحدي في جبهة معارضة، لو قلت كل ما في نفسي ما صدقني أحد، الصراع خفي، ولا منطق في أحداثه، لا يحس به أحد سواي وهو، وقد نجح في إخراج الصراع إلى السطح، ألبسه ثوباً طاهراً وجعله ظاهراً للعيان، لماذا يا سوسن وضعتني في مرمى سهامه؟، لماذا خلعتي عني خوذتي ودرعي؟ لماذا وضعتني في موقف الدفاع، العدو أمامي، والبحر ورائي، معركة مصطفى فيها المنتصر وأنا المهزوم.. هل أقبل الهزيمة؟

ياله من تحـدى خطر؟ هل أحـمل كـفنى فـوق راحـتى وأقـدمـه لمصطفى عن طيب خـاطر؟ هل..؟ هل..؟ مـا المخـرج، وأين المفر؟؟؟

(١٩٩١/٥/٨)

الكراسة الخضراء

وقعت عينى على الكراسة الخضراء وأنا منهك فى جمع بعض ملابس زوجتى، وصلت زوجتى صباح اليوم إلى ذروة آلامها المفرحة.. أسمع فى صرخاتها رنين ضحكات مرحة طالما ترددت فى عشنا الصغير.. ماذا سيكون اسم مولودنا؟.. أظننا اتفقنا أيام الخطوبة عليه.. أذكر جيداً يوم قالت هناء:

– إذا جاء ذكراً سميته أنا..

قلت ضاحكاً:

– والأنثى لى..

حتى هذه اللحظة العصيبة، وأعصابى فى عنفوانها لم أختر اسم طفلتى.. قلبت الصفحات ورأيت خط زوجتى المنمق الجميل.. يبدو أنها صفحات ملأتها ببعض الذكريات.. الوقت ضيق.. الشغف يدفعنى إلى قراءتها.. صراخ الطفل يدوى فى أذنى.. فلأجمع الملابس.. ينبغى أن أكون إلى جوارها.. الصفحات تشدنى بقوة.. تغلب فى نفسى شغف الفنان على عواطف الإنسان.. ألقيت بجسدى فوق مقعد مريح، غرقت بين السطور..

* * *

غـريبـة تلك المشـاعـر التى تجـتـاحنى.. التى تدفـعنى إلى أحضانه راضية سعيدة.. غريب أن يجتاحنى الحب ويزلزل كيانى.. لم يكن الأمر ؛ذلك يوم جاء يخطب ود أختى، نادانى يومها وقال فى اتزانه المعهود:

– مايسة أختك.. أرجو أن تسأليها فى الزواج منى.. أرجو السرية يا هناء..

فرحت جداً يومـهـا .. لم أستطع تحمل سعادتى فـأعلنت ذلك لأمى وأبى.. كـان لأختى مـايسـة رأى لم أسـتطـع حمله إليـه.. وأخـبرته أمى بلباقـة أن الزواج قـسمـة ونصـيب.. كـانت أخـتى تستكمل دراستها .. وكان هو فى فترة نقاهة بعد انفصاله عن فتاة عقد قرانه عليها .. أثخنته بالجراح حتى قرر الانفصال عنها مهما تكلف من ثمن..

كلنا يعـرف كـمـال.. مـتـعلم.. مـثـقف.. فنان أيضـاً.. يرسم بريشته اللوحات.. روحه كلها فن.. كلماته كلها ذوق وكياسة.. نظراته كلها عاطفة طاهرة.. منذ تحدث إلى بخصوص أختى، وعلمت رأيها .. شعرت بغصة ألم لأنه يستحق كل حب، وكل ود وإخلاص..

كان كمـال يزورنا مرة أو مرتين فى الأسبوع.. أجلس إليه بين فراد أسرتى.. نقضى جميعاً أمسيات طيبة.. سمر ممتع..

ضحك وانشراح.. بهجة شعرت بها تتسلل إلى نفسى المنقبضة.. فقد عقد قرانى على شاب من أقاربنا.. لا أشعر نحوه بأى عاطفة.. دائم التقلب.. ضحل الأفكار.. لا يفرق بين الصواب والخطأ.. كان زوجى شاباً ويفتقد كل مقومات الشباب.. أشعرنى كمال بالبهجة الحقيقية.. كلنا إذا تأخر افتقدناه.. ويسألنى أخى الأصغر عنه..

حين تقدم حسن لطلب يدى وافق أبى ووافقت أمى، عقد قرانى اعتماداً على صلة القرابة.. ومنذ اليوم الأول بات واضحاً أننا على طرفى نقيض.. بدأت أفكر فيما حدث.. وكيف حدث؟..

ترك كمال أختى ككم مهمل.. استطعت قراءة أفكاره من عينيه.. النظرات بيننا لا تكف عن نقل مكنون المشاعر، ويعجز اللسان عن تحويلها إلى كلمات.. يخصنى بابتساماته.. يسبغ على الكثير من حنانه..

أبى تقليدى، متعصب، لا يعترف بفترة الخطوبة التى سنها الناس لبناء حياة سليمة.. ها هو قد شاركنى اكتشاف عيوب زوجى، بدأ يعانى، وإن كان لا يفصح عن شئ..

عرفت السعادة بالقرب من كمال.. أعد له كوب الشاى بنفسى.. كنا نتبادل معاً الكلمات والأفكار.. وجدت الألفة التى

افتقدتها.. تغمرنا بعض اللحظات بالغربة.. بيننا حائل.. بل حائط لعين.. إذا انفردنا هرب بنظراته عنى، سرت فى عروق وجهه دماء الحيرة.. أشعر بالضغط الهائل على شفتيه المزمومتين.. بينما كان يحكم السيطرة على عواطفه كنت أذوب وأتلاشى.. بين يديه لا رغبة فى أى شئ آخر..

بدأت أسأل نفس: هل هذا هو الحب؟..هل تفتح قلبى: وأينع شبابى، هل شغفى ولهفتى لرؤياه حب؟.. هل يبادلنى نفس المشاعر؟.. عرفت الأرق، الفكر، عرفت الحنان، والشوق.. عرفت متعة الحياة طولاً وعرضاً فى الأحلام..

يوم عيد ميلادى السابع عشر.. دعوت كمال، وكأنى أعرف ما فى نفسه فقطعت عليه خط الرجعة قائلة فى إصرار:

– لن أقيم الحفل إذا تخلفت عنه..

امتلكته الحيرة، بدا وكأنه نوى الاعتذار.. يوم الحفل.. تأهبت له بكل كيانى، كنت سعيدة فرحة.. أملك فى ليلتى كل سعادة البشر..

دعوته ولم أدع زوجى.. خشيت أن يحضر فجأة فيهدم سعادتى.. ويبدد كل أفراحى، استقبلت كمال.. تركت يدى فى يده.. تعلقت نظراتى بنظراته.. لمحت تحت نظارته دمعة فسألته عن سبب تعلقها فقال:

- لا شئ.. كل سنة وأنت طيبة..

كنت مصرة على معرفة سبب دمعته.. أبقيته إلى آخر الحفل.. انفردت به.. ألححت عليه.. كل ذرة فى كيانى شغوفة إلى معرفة السر.. إنه سرى.. أخذنا نتضاحك، نتذكر ما دار فى الحفل.. كانت البهجة فى كل أركان البيت، سعادتى تفوق سعادة الجميع، فقد غنى كمال مهنئاً بعيد ميلادى.. مازال يطن صوته الرخيم:

«أنت المنى.. أنت الهنا.... عقبال يا حلوة ميت سنة»

عبرت كلماته عن كل أمنياتى.. همست له قائلة:

- إن كنت تحبنى ما سبب دمعتك؟..

أمسك بيدى وقال رداً على السؤال بسؤال:

- هل تحبيننى يا هناء؟

تلعثمت رغم أن كلماته أثلجت صدرى.. كانت برداً وسلاماً.. اختفى عن ناظرى كل شئ سوى صورته الحبيبة.. ألقيت برأسى إلى الوراء ولم أنبس بشئ..

اقتحمت مايسة الحجرة بلا استئذان.. استدارت على عقبيها مهرولة.. رفعت رأسى ..نظرت إليه.. وجهه يفور بثورة.. قال غاضباً:

- بقدر ما أحبك أكـ.....

وضعت يدى على شفتيه:

- أعرف يا كمال.. أنها مغرورة..

أشعل سيجارة مهدئاً نفسه.. قال بعد برهة:

- صدقينى يا هناء.. لا أكرهها لذاتها.. بل لأنها تذكرنى بـ....

واعتراه الصمت، فهمت ما عناه بالذكرى.. فقد قدم راحته المملوءة بالسعادة إلى زوجته السابقة ثم خدعته..

كان ميلادى فى تلك الليلة موقفاً مع القدر.. ولدت ومن حقى أن أعيش.. أتمتع بسعادتى.. ها هى بين يدى.. لن أدعها تفلت منى.. سأدافع عنها حتى الموت..

انفجرت الألغام التى وضعتها مايسة بعد انصراف كمال.. انضم أبى إلى جانبها وظلت أمى صامتة.. أعرف مضمون صمتها.. فهى أكثر حيرة منى.. كمال حدثها عن أختى.. وأنا متزوجة كما يتقولون.. إذا أنا انفصلت هل يتزوجنى كمال؟ هل تظل أختى على عنادها الكاذب بحبها له؟. هل يتزوجنى لأنه يحبنى؟ أم يتزوج أختى لأنه اختارها فى أول الأمر.. هل يفهم زوجى الحب.. ماذا يهم لو أخبرته مايسة عن حبى لكمال؟.. إننى لم أزف إليه بعد.. من حقى قبوله أو رفضه.. ليتحمل أبى نتيجة تمسكه بتقاليده الممقوتة، لا أملك فى الحياة غير قلبى،

ولا يمكن لأحد أن يوقف نبضاته..

* * *

انقطع كمال عن زيارتنا طوال أسبوعين.. كان شوقى جارفاً.، حياتى أشبه بالجحيم، اتصلت به هاتفياً متوسلة إليه بكل حبه، لبى طلبى، أخذتنى نوبة بكاء حار حينما جلست أنتظره.. شتى المشاعر تجتاحنى، أترانى أبكى من شدة لهفتى؟ أم أبكى لأنى لا أملك سعادتى؟.. أم لحظى العاثر؟.. لا أدرى سبباً لبكائى..

استقبلته ،شاحب الوجه.. سألته بكل لهفتى عن سبب شحوبه، وسبب تأخره، وعن.. وعن.. انهلت عليه بأسئلة لا أدرى منبعها، كلها فى لحظة واحدة.. ترك يدى بعدها وقال:

– سأخبرك فيما بعد.. دعينى أصافح أمك وأبيك، وإخوتك..

أعددت له الشاى.. جلست أنظر إليه.. يتحدث إلى أبى تارة، وإلى أمى تارة أخرى، وتسقط نظراته على فيبتسم.. جاءت أختى مايسة، حاولت أن تستحوذ على انتباهه ببعض النكات، لم ينظر تجاهها، أظنه أغلق أذنيه.. أنظر إليه سعيدة كل السعادة، فهو وحده سلاحى وعتادى فى مواجهتهم جميعا.. جلست إلى جواره وتبادلنا النظرات طويلا، كدنا ننسى وجود الآخرين.. اشركنى فى معاناته كفنان يشق طريقه بصعوبة،

السبيل على سعته ضيق، مقصور على فئة من الكبار، اندفعت أشجعه، أبشره بمستقبل رائع، ابتسم وهو يقول:

- إننى صامد حتى النهاية.. كنت أبحث عن قلب يحبنى.. إنه قلبك يا هناء..

نسيت زوجى تماما، لم يعد فى الحسبان أنى متزوجة.. شعرت أنى محبة ومحبوبة، طائشة فى حبى، مفتونة بحبيبى.. وبعد انصراف كمال تذكرت موقفى.. أعلنت قرارى النهائى لأمى لا زواج من حسن، هددت بالانتحار إذا لم تنفذ مشيئتى.. سألتنى:

- وهل يتزوجك كمال ؟

- أنا واثقة من ذلك؟

- هل سألته؟

تلعثمت.. أعلنت لها اعترافه بحبى.. أخذت أسرد عليها الشواهد والظواهر الأكيدة.. قلت فى آخر حديثى باكية:

- إنها سعادتى.. لا معنى لأن أخسر زوجى مقابل كسب كمال.. أحبه سواء تزوج بى أو لم يفعل..

- وإذا لم يتزوجك؟

- سأعيش بقية عمرى على حبه..

ـ مجنونة.. غيرك يبحثن عن أى زوج، وأنت ترفضين..

انفردت بنفسى أبكى.. أبث وسادتى شكاوى قلبى الموجع.. لماذا افتقد الجرأة ولا أحدثه فى الزواج.. ماذا لو سألته؟.. الأفضل أن أكتب له رسالة..

كانت أمى تحبنى. أيقنت ترحيبها بقرارى رغم اصطناعها الغضب.. لم يعد لزوجى مكانة فى نفوس الجميع.. بدا كعنصر غريب يرفضه جسد العائلة.. حين جاء يطلب موعدا للزفاف.. تحمست أختى وأبى، وامتنعت أمى عن إبداء الرأى، لذت بحجرتى، علمت بعد انصرافه أن الأمور تحولت لصالحى.. أبى يرفض أن أعيش مع أسرته.. طباعهم تختلف، أمه سليطة اللسان، قوية الشكيمة، أخته تسيطر على الأسرة كبيرها وصغيرها.. سررت كثيرا لتحول موقف أبى.. انصفنى من حيث لا يدرى.. ثمة عاطفة فى قلبه حريصة على سعادتى.. يعمل على توفير الطمأنينة لى، وجدت فرصة ثمينة لالتقاط الأنفاس.

جاء كمال، ورسالتى إليه تؤرق بالى، هى فى جيبى، هل سأجد الشجاعة وأعطيها له، حدثته أمى بما حدث، صمت ولم يبد رأيا.. سألته أمى عن فكرة زواجه من مايسه متذرعة بأن الخبر انتشر فى محيط العائلة، نظر كمال طويلا وكأنه يستمد

الشجاعة منى فابتسمت له، نظر إلى أمى وقال:

- مايسة لا تستطيع إسعادى، ولا أستطيع إسعادها .. إنها من بنات هذا الجيل متطلعة أكثر مما ينبغى.. تحلم بالمستحيل.. فيلا.. سيارة.. ليس هذا فى سعتى.. أخشى ما أخشاه عليها اصطدامها بالحقيقة ،حينئذ تسوء العاقبة.. تتمرد، وتسئ معاملة من حولها .. لست على استعداد لخوض هذه التجربة..

ضحكت رغما عنى، فالانتصار لحبى كان دافعا لأكثر من الضحك، وفعلا بكيت بعد الضحك.. دنا منى كمال وأخرج منديله يجفف لى دموعى.. سألنى عما أبكانى بعد الضحك قلت:

- لا شئ .. لا شئ..

ثم قلت عبارته..

- سأخبرك فيما بعد..

تركت أمى الحجرة عامدة متعللة بعمل ما .. إزداد بكائى فعاود كمال تجفيف دموعى.. أمسك بذراعى قائلا:

- هنا .. لا أحب أن أرى دموعا فى عينيك.. ليتنى أستطيع ذلك حقا..

لكن إرتج عليه القول.. لم يجد كلمة تطيعه.. قلت من خلال دعومى:

- تعيسان .. أنا وأنت تعيسان.. سعادتنا معا ولا نملكها.. أتمنى الموت.. الموت وحده أرحم من هذا العذاب..

احتضنت راحتاه الدافئتان وجهى، رشف بشفتيه دموعى.. قبلنى أول قبلة وقال:

- تمنيت إهداءها لك فى عيد ميلادك.. سر دموعى ليلتها.. هل تقبليننى زوجا يا هناء؟..

ما أجمل السعادة حين تكتمل؟.. توهجت شمعة الأمل.. جسدى لا وزن له.. تطلعت أستنجد بذراعيه فقد أوشكت على التهاوى.. مقعدى معلق بين السماء والأرض.. إحتبس صوتى.. أريد أن أصرخ؟ .. أن أبكى.. أن أزغرد.. أريد كلمة «يا حبيبى» تخرج من بين شفتى.. كانت فرحتى صدمة، وآمالى صدمة، أصيبت أحبالى الصوتية بشلل تام..

لزمت الفراش.. سهرت أمى وقاسمهما كمال رعايتى.. تسهر أمى حزينة متألمة فيغشانى الكرى، وأعيش مع الأحلام.. ويسهر كمال ..أظل أنظر إليه وهو يبثنى حبه وأحلامه لمستقبلنا معا.. عشت النعيم والسعادة.. رغم رقادى.. ليس فى ملكتى سوى

الدموع.. شعرت أنني في مسيس الحاجة إلى الشفاء.. كلما جاء كمال يسألني عن حالي، يجيب عن نفسي مطمئنا قلبه بقرب شفائي، شعرت براحة.. أمسكت يده وأغمضت عيني، صوته يرن وهو يقرأ لي من قصة جاء بها، همسه يرفعني إلى السماء فأتحول إلى شئ هلامي.. لمسات أصابعه حنان متدفق، تسللت أصابعه بين أصابعي، خلعت خاتمي، وضعت خاتما آخر مكانه، فتحت عيني دهشة صحت وأنا أحدق في الخاتم:

ـ كمال..

همس والفرحة تملأ صفحة وجهه وعينيه:

ـ مبروك يا هناء..

غبت طويلا بين ذراعيه وأنا أتكلم، أشعر بها لحظات ستضيع مني، على أن أقول كل ما في نفسي.. يحاول تهدئتي، اختلطت أفراحنا في دموع اندفعت معبرة عن سرور فوق الاحتمال..

فتح باب الحجرة عن حسن، زوجي، لم نكن نعلم بوجوده، منعت أمي دخوله إلينا.. توقف بالباب وقال ثائرا ـ كنت أعرف يا هناء.. لم أعد الزوج المرغوب فيه..

صفق الباب وراءه وانصرف، دخلت أمي مهرولة تسأل عما

حدث؟.. وعما أغضبه؟

قدم إليها كمال خاتمه وقال:

- أرسليه فى أثره، عليه أن يطلقها فى هدوء.. أنا وهناء مصيرنا واحد..

نظرت أمى إلى مستفسرة، اكتفيت بأن رفعت إليها إصبعى يحمل خاتم كمال ..

قالت :

- لا أظنه سيفعل.. سيجبرها على الحياة معه بالطاعة..

قال كمال :

- لم يعد هناك إجبار .. ليضرب رأسه فى الحائط..

هربت الدماء من جسدى، بدا كل شىء كريها، هل أجدنى ذات يوم مجبرة على حياة لا أريدها .. هدأ كمال من الموقف.. انقلب البيت فجأة أفراحاً لشفائى.. تمنيت إنتهاء كل آلامى..

يلوم أبى نفسه على تسرعه فى عقد القران.. اعترف أخيرا بالحرية.. حرية إرادة الآخرين. بدأ يلعن التقاليد، أعلن أنه السبب، أخذ كمال يهون عليه الأمر ويؤكد أن لكل عقدة أكثر من حل.. عرف أبى ظلمه لى. وعرف واجبه فى رفع الظلم عنى..

* * *

كانت أختى تنتظر نتيجة الامتحان.. ولا هم لها سوى تقريظى وتعنيفى رغم صغرها عنى، لم أجد فى إمكانى إغاظتها إلا بالتلويح بخاتم كمال فى إصبعى، ثارت ثائرتها ودب شجار بينى وبينها، انعقد مجلس الأسرة، قالت متخابثة :

ـ أنا لم أرفض يده..

عنفتها أمى ثائرة:

ـ قلت أنا غير موافقة..

قالت :

ـ ما القول إذا وافقت الآن؟ .. أنت لم تنقلى إليه رفضى..

ـ كلا بالطبع، لكنى قلت كل شئ قسمة ونصيب.. ولا يخفى عليه ما عنيت..

قال أبى معنفا لها :

ـ أنت السبب فى كل ذلك.. تكذبين علينا وعلى نفسك..

حين ازدادت حملة الهجوم عليها، وازداد غضب أبى، ضحكت.. استغرقت فى الضحك.. هم أبى بصفعها .. أمسكت يده وقالت:

ـ صحيح يا أبى .. أنا أحب كمال، لا أريد الزواج منه..

أتدرون لماذا قلت ذلك.. كل همى أن يزداد تعلق أختى بكمال، حتى تقتنعوا فى النهاية بأنه لا حياة لها بدونه.. حدث ما أردت .. رأيتهما سعيدين وهذا ما يسعدنى..

وبحركة ضاحكة جلست فوق ركبتى أبى وقالت :

- الدنيا تغيرت يا أبى يا حبيبى.. الحياة تقدمت .. كل فرد اليوم ارادة حرة.. حقيقة حسن هذا لا ينفع أختى..

غمغم أبى وهو يدفع بها :

- شيطانة..

عقبت أمى ضاحكة:

- كلها مكر ودهاء..

وقفت مايسه فى حركة تمثيلية وقالت:

- منعتونى من دخول معهد التمثيل فمثلت عليكم..

اعترتنا جميعا الدهشة مما تقول مايسة.. قصصت على كمال كل ما كان منها.. ولأول مرة أراه يبتسم لها ويصافحها ويشكرها..

***

نجحت مايسه فى الحصول على شهادتها .. عمت الفرحة قلوبنا جميعا.. قررت أمى إقامة حفل عائلى، تقرر موعد الحفل

وبدأت مايسه تدعو صاحباتها ودعت فيمن دعت كمال..

أقيم الحفل، حضر كمال وقد أحضر معه صورة لمايسه نقلها بريشته.. قدمها لها، فرحت بها.. التفت صاحباتها حول الصورة يكيلن المديح لكمال.. ولأول مرة رأيت مايسه وهى تتقدم إليه وتصافحه فى تأنى وهدوء.. تشكره على هديته ثم تغشى وجهها سحابة من الحزن..

***

اعترى كمال تغيير ملحوظ منذ تلك الليلة.. أخذت زياراته تقل.. لا يحضر إلا إذا طلبته هاتفيا.. يتعلل بمشاغله.. بدأت أعانى لوعة الحب، ألومه بينى وبين نفسي ..حين يحضر لا أجرؤ على لومه.. اسلوب التعامل بينه وبين مايسه تبدل عن ذى قبل.. يتحدثان كثيرا عن الوظيفة والحياة العملية، وعدها بأن يحاول إلحاقها معه فى الوزارة.. بدأت تخرج معه لإعداد أوراقها.. تقص حين عودتها احتفاءه بها.. شعرت بأنه يتحول عن حبى، ثارت نفسى بكوامن الغيرة، بدأت أحيطه بالشكوك..

أتى حسن بعد شهور إنقطعت فيها أخباره، علمنا من بعض الأقرباء أن اخته اختارت له عروساً، سيتزوج قريبا، بدا حزينا.. سمعته يقول لوالدى:

- جئت أوقع وثيقة الطلاق.. تمنياتى لها بالسعادة..

كدت أصعق من المفاجأة.. هذا النبل. هذه الشهامة لم يعهدها فيه أحد .. سرعان ما طغت على الفرحة.. ابتسمت الدنيا فى وجهى، تراقص قلبى بين جنبات صدرى، انقشع الغمام، وامتلأت السماء بالصفاء..

تلقى كمال النبأ وخيمت سحابة حزن على جبهته.. رغم أن لوحاته عرفت طريقها إلى المجلات والصحف، ورغم أن الخلاص أصبح واقعا، سألته فى لحظة هدوء عن حزنه فقال:

- الحزن فى هذه الآونة طابع كل شئ، ما حدث بعد الحرب الماضية ليس هيناً على الناس، مرت السنوات والناس لا ترى بصيصاً من النور يهديها.. كيف يكون ذلك هيناً على الفنان؟

عن أى مستقبل يتحدث؟.. مستقبله هو؟ أم مستقبل الناس؟ وأين أنا من هذا المستقبل؟.. حرت فى تفسير هذا المستقبل الذى يتحدث عنه..

أجلس معه فى المرسم الساعات، يلون بريشته اللوحات، بانتهاء اللوحة يعلن تبرمه بها، ليست هى المراد، يعانى الأرق الفنى فى خياله، ماذا يرسم؟ يريد التعبير بصدق ولا يجد إلا العجز، يحزن، يتألم.. أهون عليه الأمر وأبثه الشجاعة للمحاولة

من جديد، يكتفى بأن يقول لى:

- إنها الحقيقة دائماً، السعادة لا تكتمل أبداً.. عندما أحببتك كانت لدى شحنة من الخيال، ها أنا فزت بحبك وقلبك بقى شئ واحد يكمل سعادتنا.. الفن الذى أكرس له حياتى..

كان يفكر دائماً، ينسى نفسه وهو جالس معى، وكانت مايسة أكثر لطفاً، أكثر اتزاناً وتعقلاً، لم يعد كمال يؤثرنى بنظراته، أعلن تضايقه حين أعلنته بشكوكى، طلب ألا أثير هذا الموضوع إطلاقاً، الأمور تتأزم، تقاسمنى مايسة حنانه، واهتمامه، نظراته بل وأكثر تخرج معه إلى العمل وتعود بصحبته..

الحرب الباردة بيننا، صمتها يقتلنى، أحيطها بالأسئلة عن كمال، عما يدور بينهما، تضيق وتتبرم، تعلن عن غيرتى العمياء، يدب بيننا الشجار، يضيق أبى بنا ويعنفنا، أمى تحاول التوفيق بيننا، باتت نية الغدر واضحة، طابت لها صحبته، ما هذا الذى يحدث؟ هل هى نهاية حبى، هل يلتقيان فوق جثتى، هل تخوننى أختى؟، هل يخوننى حبيبى؟ لن أقبل الهزيمة..

استقبلتها ذات يوم بعد عودتها ثائرة:

- متى تنتهى تمثيليتك يا ست مايسة؟

- انتهت يا هناء.. انتهت اليوم..

صحت:

- أين كمال؟

- ذهب إلى بيته..

تركتـها أدور حول نفسي، ما معنى هذا؟ عاد إلى بيته.. انتهت التمثيلية اليوم، أخذنى التفكير فى دوامته، قضمت أظافرى وأنا أحث الظلمة على الانقشاع، أنتظر انبلاج الفجر والصباح لأتصل به وأتبين حقيقة الأمور..

الأرق لعنة، الانتظار لعنة، الحياة بلا حب أقصى اللعنات، لم يستطع فكرى تخيل الحياة بلا حب بعد أن عشته، جاءتنى كلماته عبر الهاتف هادئة، وعدنى بأن يأتى مهرولاً، عبر عن وحشة تجتاح كيانه، وشوق يعتمل فى صدره، زغردت الكلمات وهى تندفع من شفتى تهيب به أن يأتى..

لقيته كما اعتدت من قبل، قبل أن يعرف قلبى الغيرة.. لمته بعد أن بدأ يطالبنى بالصفح.. قال:

- كانت شطحة من شطحات العقل الجامد..

أخبرنى بكل ما دار بينه وبينها.. عدنا مرة أخرى إلى

حبنا.. تزوجنا.. عشت أهنأ أيامي، شاركته الحياة فى البيت، المرسم، النادى.. نتقاسم كل شئ بود وإخلاص، عشت مولد لوحات جديدة.. فاز فى مسابقات عدة، حقق بعض ما يحلم به..

مضت الحياة جنباً إلى جنب مع الحب.. سنوات وسنوات.. رحلة جميلة.. بدأت تشوبها بعض الشوائب.. تجتاحنى مشاعر غريبة، كتلك التى اجتاحتنى يوم تقدم طالباً يد أختى.. لم يمنحنى الله الطفل، صوته وحركاته وضحكاته تملأ أحلامى، صارحنى كمال بأنه يعانى محنة نفسية، قال الطبيب ذلك، خيرنى بين الاستمرار أو الانفصال..

ما معنى هذا الاختيار ليلة عيد حبى، إنه يحبنى، لعله يضع فى كفتى ميزان حبى له، وحبى لطفل لم يولد.. المشاعر الغريبة تجعل رأسى يتأرجح من ثقل الأفكار، بالتأكيد لم يفتر حبى، لا يمكننى الاستغناء عنه، بالتأكيد أيضاً أنا فى حاجة إلى طفل، حياتى نغصتها كلمات النساء، ما شأنهم بى؟ كيف أوازن بين هذه الأمور المتعارضة، ماذا أختار؟ لقد صارحنى وينبغى أن أصارحه كما اعتدنا.. هل أضحى بسعادتى وهنائى، ألقى بنفسى فى أحضان رجل آخر من أجل طفل، أليست السعادة

هى السعادة؟ هل هناك فارق؟ لماذا تمتلئ نفسى بالجشع؟ لماذا تهفو إلى طفل وأنا سعيدة بدونه.

مرت أيام ثقيلة، الذبول يملأ عينيه، أطرافه ترتعش كلما لامستنى، يغض بصره كلما تحدثنا، الخواء يملأ حياتنا، أهرب أحياناً من حياتى إلى حبى، أتعلق به كأمل ينجينى من خطر داهم..

يبدو كمال وكأنه يعد نفسه لأمر هام، أو يعانى مشقة عنيفة، أعرف محنته النفسية، وأزمته الفنية، حياتنا فى حاجة إلى طفرة تغيير لتذيب الجليد، معجزة تقلب دنيانا..

مرت الشهور.. هاجت الدنيا وماجت.. قامت الحرب.. شغلتنى أنباء المعركة والانبهار بالانتصارات.. أتابع الإذاعة والتليفزيون.. أتناقش مع كمال وأشاركه سعادته.. بدأ يعمل، يقضى معظم وقته فى المرسم، يتابع الانتصارات باللوحات المعبرة، كأنها خارجة من مصنع، تبدد الملل، تلاشى السأم الذى سيطر على حياتنا، انزوى الشقاء فى دروب السعادة التى تفتحت..

حياة جديدة، تناول كمال اللوحات القديمة بالألوان الزاهية، تبدد الحزن الذى كان طابعها، ظهر الحصاد وفيراً، عشرات

اللوحات، تهافتت المجلات على طلبها .. قفز قفزة رائعة، انفرجت أزمـتـه الفنيـة فـأضـفت على الحـيـاة جـواً جـديداً من الحب والسرور..

دعى كمال لزيارة الجبهة، أخذ رأيى فى مصاحبته، تعلقت بذراعيه كطفل صغير:

– أتمنى ذلك من كل قلبى..

أقلتنا السـيـارات إلى هناك.. زرنا مـواقع القـتـال، التـقـينا بالأبطال، عشنا جو الحرب مع المعدات الأسيرة، سـجل كمال كل مـا رآه فى رأسـه، تمنى أن يعـود سـريعـاً ليـرسم بفـرشـاته مشاعره، شعرت بالخطر وقد زال، اكتسبت روحى مناعة ضده من طول المعاناة..

كانت الرحلة أكثر من رائعة، شـعـرنا بانفصـال عن هفوات نفوسنا، كل منا يجرى ليشـاهد مـا تهـفو إليه نفسـه، نجـتـمع لتناول الطعام، أو قضاء بعض الوقت فى الراحة.. شـعرنا بأننا عاشقان نلتقى خفية عن أعين الناس..

عـدنا من الرحلة إلى الحـيـاة عـودة مـحـمـودة.. عـدنا إلى الضـحك والسمر، تبادلنا النظرات طويلاً.. بدا كـمـال مـخـتلفـاً عنه طيلة سنوات مضت.. وجهه عريض مضرج بالدم، الشباب

يدب فى عروقه فينفض كل التجاعيد، البسمة لا تفارق شفتيه، جسده يزداد فحولة.. كأنني أراه لأول لحظة، شعرت برغبة.. تسلل كعاشق إلى فراشي.. تبادلنا الهمس، الآن خياله وافر الخصب، يأمل أن يرسم مئات اللوحات.. همست له:

– كم من ليال لم نعشها؟

– كانت مظلمة .

الدفء غير الدفء.. الطعم غير الطعم.. عاد إلى عقلى.. لا أستطيع الحياة بعيداً عن هذه الأنفاس، لا أستطيع مفارقة هذا الفراش، لا مجال للاختيار، أنا وحبيبى قمة السعادة، امتزج خيالى بخياله فى رسم الحياة، قررنا إقامة حفل ليلة افتتاح المعرض الأول..

وقفت أتلقى التهنئة فخورة، سعيدة، أصافح كبار الزوار، كبار الفنانين، كبار الأدباء، فخورة أختلس النظر إلى كمال يتلقى التهانى، أكاد أشعر بالحسد تجاهه..

ابتسمت لهذا الخاطر.. أشاركه الفخر والشرف.. كل شئ على ما يرام.. فجأة شعرت بدوار حاد، استندت بظهرى إلى الجدار، هرولت مايسة وأسندتنى إلى صدرها، أجلستنى، لمحنا كمال فهرول ناحيتنا، استدعى طبيباً أقلنى بسارته إلى البيت،

أوقع الكشف وانتظر عودة كمال..

بعد انتهاء الحفل جاء زائغ النظرات، مضطرب المشاعر، تطلعت إليه واكتشفت لأول مرة شعيرات بيضاء نبتت خلسة فى مفرقيه، ابتسمت أطمئنه، قال له الطبيب:

- لا تخف يا أستاذ..

نوبة دوار تصيب الحوامل..

اعتدلت فى فراشى صارخة، أخذنى كمال بين ذراعيه، والطبيب ينظر إلينا سعيداً، ذهبت مايسة فى توديعه..

طعم جديد للحياة، روعة جديدة للحب، شكل جديد للسعادة، لا أكاد أصدق أننى سأنجب طفلاً، قال كمال:

- الآن أقول لنا طفل..

طفلى يشاكسنى، سعادتى كاملة، آثرت أن أكتب سرها، أخشى أن أموت لاعتقادى أن السعادة لا تكتمل، لعل الله يخيب اعتقادى هذه المرة، ليت طفليى ينعم بحنانى وحبى، ليت الحياة تعقد هدنة مع الحب من أجل حبنا.. طفلنا..

(١٩٩١)

حياة أخرى فوق الأرض

كنت أسير - تحت ضغط الحاجة - على ضفة النهر، فى ذلك اليوم العاصف، تجتاح المدينة رياح خماسينية صفراء، عنيفة، امتلأت خياشيمى بالتراب، الأشجار تتمايل رغم سمك جذعها الكبير، ترتدى هاماتها أردية صفراء كالحة، تتشرنق أوراقها فى غلالات رمادية، تمخضت وبصقت، هالنى لون بصاقى الطينى، أيقنت أن صدرى امتلأ بالوباء، وأى وباء، المدينة التى أحبها لفظتنى، صرت بلا مكان، بعد رحلة طويلة من الشقاء والتعب، لا أجد راحة فى المقهى، فى البيت، فى الشارع، فى كل مكان..

تطلعت أبحث عنها، العصافير اختفت، والبشر، قلة متناثرة، بعضها يهرول، بعضها يتقى العاصفة بالسير لصق جدران البيوت، السيارات فى بطء تكدست فى عرض الطريق، التفت حولها وجهى ورقة جريدة طائرة فى الهواء، أمسكت بها.. صفحة الوفيات، هتفت فى داخلى:

- لم يبق إلا هذه..

فكرت طويلاً، ومنذ أمد طويل فى الموت، دعوت الله أن يحققه

لى، كل ما لقيته من عنت الحياة يهون، أما عنت أولادى فلا، طفحت الدم والعرق لأخلق منهم رجالاً، حينما رسمت الشعيرات لحاهم تطاولوا على:

– أنت كبرت ، وبدأت تخرف ..

– يا شيخ ، ابحث لك عن موتة ..

– المفروض على الدولة قتل من يصل سن المعاش ..

وألهمنى الله الصبر، لكن إلى حين، احتملت ، وعودت نفسى على قبول ما لابد من قبوله، لكن، طفح الكيل، وماتت كل شعيرة حنو، أو شعيرة ود، أو أبوة، كان آخر المطاف ما سمعته من أصغر أبنائى حينما اعترضت على زواجه من راقصة ملهى:

– عيب يا بنى، نحن أناس محافظون، لنا كياننا فى الحى، وفى الأسرة، ماذا أقول للناس؟؟

احتد على قائلاً:

– مالى أنا والناس، أنا حر ..

صحت فيه:

– ملعونة هذه الحرية التى هدتنا، وخربت بيوتنا، كل من شم نفسه قال أنا حر، هذه فوضى، أنا لا أقبل هذه الفوضى فى بيتى..

رد أحدهم فى استهزاء:

- بيتك.. يا أخى ابحث لك عن قبر..

وتبادلنا الصياح والصراخ، أيده إخوته بذات اللهجة:

- دعه ولا ترهق نفسك.. هو حر..

صرخت مغتاظاً، والشياطين تتخايل أمام عينى:

- أنتم أولاد حرام، لستم أولادى..

هاجت زوجتى وخرجت عن صمتها، تكونت جبهة واحدة منهم جميعاً، انتهى المطاف بأن سب الولد اللعين الدين، تركت بيت الكفرة، وهمت غير مبال بأى شئ، التفت بوجهى دوامة ترابية، اشتعلت نار الألم تحت جفنى، شئ عنيف يصدم جبهتى، ارتدت رأسى بكل ثقل الألم، سقطت على ظهرى كلوح من الخشب، سمعت طرقعة فقرات عمودى الفقرى، اصطكت مؤخرة رأسى بالأرض، أسمع أصواتاً كأنها آتية من أجواز الفضاء:

- سقط هنا، أين ذهب؟

- كأن الأرض ابتلعته، رأيت بعين رأسى الدماء تغطى وجهه..

صوت نسائى مضطرب، وأنا أعتدل واقفاً:

- يا حفيظ.. أين اختفى؟، أعوذ بالله من الشـ ......

لم أدع الكلمة تكتمل، صفعتها على فمها، وضعت يدها فوقه، وأخذت تجرى، وعيون الواقفين تتبعها، بدأ الجمع فى الانفراط، نفضت عن ملابسى التراب، مسحت براحتى ما غطى وجهى من دماء، أحسست باللزوجة، قفزت السور الفاصل بين الأرض والماء، خلعت ملابسى، جمعتها فى حزمة، نزلت إلى النهر، اغتسلت، وقفت استمتع بمنظر الأمواج فى صراعها مع الرياح العاصفة، هدأت فجأة، استوى الماء كأسفلت الطريق، سرت فوقه، وجدتنى فى الجانب الآخر.. عاد النهر إلى صخبه وهياجه..

شغل ذهنى ذات الصوت النسائى، رأيتها بين ذويها، شفتاها ملتصقتان، تهز رأسها فى عنف، تعبر بيديها عما حدث، لا أحد يفهم، تضرب بقبضتها الأرض، يحاول من حولها كل بدوره الفصل بين شفتيها عنوة، أحضروا الطبيب، دخل بعنجهية وكبرياء، نظر إلى وجهها، ركز عينيه فى شفتيها الملتصقتين، تحسس وجنتيها، ضغط على فكيها، حاول دفع ذقنها إلى أسفل، أبت، أغلق منخاريها بإصبعيه، اكفهر وجهها وازدرد بالاحمرار، ازدادت حدقتاها اتساعاً، رفع الطبيب إصبعَه قائلاً فى حيرة:

- حالة غريبة، حالة نفسية دون شك..

قال أبوها في وجل:

– والحل يا دكتور، هل ستبقى على هذه الحال؟

اطرق الطبيب برأسه متفكراً، ثم رفعها وقال:

– عليكم بالطبيب .. .. أما رأيي الخاص فهو..

بحلق في وجهها مرة أخرى. لمح عينيها المستغيثتين، سأل:

– هل لكم أعداء ؟

هز أبوها رأسه:

– لا ندري ..

سأل مرة أخرى :

– ألم يحدث لها شيء غير مألوف؟ ، هياج مثلاً، أو شرود..

ردت الأم، من خلال دموعها المنهمرة:

– ابنتي غاية في الهدوء والأدب والكمال..

قال وهو يحمل حقيبته، وبعد أن تقاضى المعلوم ودسه في جيبه:

– قد تظنون بي الظنون، لكن ما أعتقده أن بها مس من الشـ.....

لم أدع الكلمة تكتمل، ركلته في مؤخرته، خرج يهرول، قفز الدرجات قفزاً إلى عرض الطريق..

ضحكت على الطبيب الذى أصابه الهلع من ركلة، نظرت إلى عينى الفتاة رأيت فيهما ابتسامة مشرقة، سعدت بها، تمنيت أن تسعدنى ابتسامة شفتيها أكثر، نظرت إليها برهة، سمعت صياحها:

- بابا .. ماما .. بابا .. ماما .. أنا شفيت ..

وألقت بنفسها بين أذرع كثيرة أحاطت بها، دمعت عيناها، وهى تبدأ وصف ما حدث ..

تابعت الطبيب أضحك مع الضاحكين، اقتحم العيادة يجرى، داخل حجرة الكشف يجرى، حول المكتب، حول المقاعد، حول سرير الكشف، وقفت الممرضة بباب الحجرة مشدوهة:

- دكتور .. ما بك ؟

قال وهو يلهث :

- اصرفى كل المرضى ..

عادت بعد لحظة، اقتربت محاولة التصدى له وإيقافه عن الجرى، دفعها بالحقيبة فسقطت على ظهرها صارخة متألمة، أغاظنى تصرفه، دفعت به إلى خارج العيادة، وليجر فى الطريق ما شاء ..

أمسكت بيدها، أوقفتها، وهى تضع يديها فى خاصرتها :

- آه يا ظهرى..

ثم تلفتت حولها فى ذعر، مدت يدها التى أمسكت بها لأرفعها أمام عينيها، همت بأن تقول «بسم ......»..

خلفت الحجرة ورائى..

أتبع الطبيب المهرول، اقتحم المستشفى الذى يعمل به، اقتحم حجرة أستاذه الكبير، نظر إليه الأستاذ بدهشة:

- ما بك ؟

قال وهو يجرى حول مكتب الأستاذ الكبير، وحول المقاعد كلمات متقطعة:

- اسعفنى / يا أستاذ / لا / أستطيع التحكم / فى / ساقى، أكثر / من ساعة / وأنا / على هذه الحال.. ساعدنى / أرجوك ..

قام الأستاذ الكبير وأمسك به من ذراعه، وجد الأستاذ نفسه يجرى معه، شعر بقوة خارقة تشده، فك قبضته، وألصق ظهره بالباب يحدق فى بلاهة..

يحاول الطبيب أن يقص ما حدث وسط لهاثه :

- كنت .. عند .. مريضـ .. مريضة .. التصقـ..ت .. شفتاها .. حاولت مسا.. مساعدتها .. لم أستطع .. لم .. أقل.. غـ .. غير .. أن.. بها.. ها .. مس .. مـ.. من .. الشـ..

الشى .. فو .. جئت .. بركلـ.. لة.. على مؤخرتى.. دفعت .. بى .. إلى.. الشارع.. أرجوك.. أوقفنى.. كبلـ.. لنى ،..

احتار الأستاذ الكبير، توقف ذهنه عن العمل برهة، خرج من الحجرة هاتفاً:

- عزت.. أحمد .. حسين..

مثلوا جميعً أمامه، قال وهو يدلف إلى الحجرة:

- تعالوا ورائى..

وأشار إلى الطبيب قائلاً:

- أوقفوا هذا المجنون..

تصدى الثلاثة للطبيب، دفعهم بالحقيبة بين يديه، سقطوا فوق بعضهم، خرج على حالته من المكتب، ومن المستشفى، يجرى فى عرض الطريق، ينظر إليه المارة فى تعجب وضحك، ثم ينصرفون إلى حالهم..

أصاب الطرق نوع من الارتباك، ففى طريق حاول سائق تفاديه واحرف يميناً فصدم سيارة ، صعدا إلى الطوار ليصدما عدداً من المارة ، وفي طريق آخر حاول سائق لورى ضخم تفاديه فانحرف يساراً وتخطى الطوار الأوسط، ليصطدم بعدد من السيارات المسرعة لتنحرف كلها، وتصدم غيرها،

بدأت كوكبة من المارة وراكبى الدراجات البخارية مطاردته، توقف أحدهم أمامه بدراجته، دفعه الطبيب المهرول بحقيبته، سقط على جانبه يصرخ والدراجة بكل ثقلها فوق ساقه اليسرى، تجمهر الناس، رفع بعضهم الدراجة، عاين بعضهم الساق، أخذ بعضهم يجرى للحاق بالطبيب المهرول..

تجمع العديد من الاستغاثات التليفونية عن وجود مجنون يجرى فى الشوارع، وعن حوادث سيارات تسبب فيها، وسقوط قتلى، وجرحى، هرولت سيارات الشرطة يسبقها نعيقها الحاد إلى المنطقة، اصطفت عند ملتقى الشوارع، صنعت متاريس لإيقاف المجنون المهرول، وفى جعبة كل شرطى أمر بإردائه قتيلاً بالرصاص إذا لم تفلح الجهود فى إيقافه حياً، أحسست بالإشفاق عليه، له أسرة، وحفنة من الأطفال، يمكننى إيقافه لكنى خشيت أن يقع تحت طائلة القانون، ويوضع على كاهله كل ما حدث من حوادث، ويتحمل وزر القتلى والجرحى.

دنوت من منطقة الحصار، وحين رأيت البنادق مشرعة فى مواجهته، بعد أن أوقع صفاً من جنود الشرطة ذوى الدروع، قابلته قبل أن ينهمر عليه الرصاص، نغزت صدره بإصبعى فسقط على ظهره كلوح من الخشب، ظلت ساقاه تعملان كمن يقود دراجة.. تركته وأنا على يقين أنه لو اجتمع كل رجال

الشرطة الموجودين وامتدت أذرعهم دفعه واحدة لإيقاف ساقى الطبيب عن الحركة، لما استطاعوا..

عدت إلى دارى لأنعم بفترة راحة، وجدته كالعادة يعج بالضيوف، أحبائى، الراقصات تتلوى بين الموائد العامرة، الكؤوس تتقارع، المغنيات يتمايلن على دقات الطبول، الدفوف، مديرة الدار تشرف على كل اللذائذ.. حين مثلت بين يدى قالت:

- هل هذا الصخب، وهذا الضجيج يصل إلى المستوى المطلوب للترفيه عن مولاى؟

هززت رأسى نصف هزة، قالت:

- ما تريد تحت أمرك؟

واقتربت منى الفتاة قائلة:

- خادمتك يا مولاى..

نظرت إليها ملياً، تطايرت ملابسها فى كل اتجاه، رفعت إصبعى فجاء الوسيم ملبياً يعلن استعداده، وفى يده كأسان، قدم إليها أحدهما أفرغته فى جوفها، تجرع هو الآخر، ثم ارتمت بين أحضانه وتهالكا منغمسين فى النعيم..

طفت بأرجاء الدار، كل الأمور على ما يرام، كالمعتاد، قلت لمديرة الدار:



- سأخرج فى جولة ..

انحنت مودعة، انحنى الواقفون والجالسون، الراقدون، المضطجعون، الشاربون، الآكلون، الفرحون، المحزونون، الأصحاء والمرضى، وكل من فى الدار، أشرت بيدى علامة الرضا، خروا جميعاً فى سجود، خرجت من عينى برقيات صغيرة إلى كل منهم ليقف على مهمته المنوط به تنفيذها، على الفور خلت الدار وتفرقوا فى كافة الأنحاء..

لم تشبع رغبتى الفوضى التى سببها الطبيب المهرول، لابد من فوضى غيرها أكثر فوضوية، وأكثر سفكاً للدماء، وأكثر إرهاباً..

لمحته، وكنت أعرف وجهته، يركب سيارة خاصة، يحوط به الحراس مدججون بالسلاح، ما خفى وما كان ظاهراً، تسبقه عربتان مصفحتان، تحوم فوقه طائرة مروحية، خلفه دبابتان، هذا غير راكبى الدراجات البخارية، وسيارات الحاشية، نظرت نظرة شاملة فبدا الركب كقلعة حصينة تمشى على أربع عجلات، رمقت عجلات سيارته بنظرة عابرة، تبدد الهواء من داخل إطاراتها، ونامت على الأرض، ساد الهرج، زمجرت ماسورتا الدبابتين، والمصفحتين، تفرق المشاهدون كفئران مذعورة، أخرجوه من السيارة المشلولة ودفعوا به فى إحدى

المصفحتين، وانطلقت تدوس كل ما يعترض طريقها، ضحكت من أعماقى، وأنا أراه ساهماً، واجماً كقطعة شطرنج يحركونه كيفما شاءوا، أودعوه القصر المنيع، ارتدت إلى عروقه الدماء، وقف مزمجراً:

– هناك مؤامرة ضدى..

قال مسئول الأمن فى خوف

– يا افندم اتخذنا كل الاحتياطات، لا يمكن تصور ما حدث؟؟، الإطارات الأربعة مرة واحدة.. كيف؟

قال أكثر من زمجرة:

– أتسألنى ؟ ..

رد مسئول الأمن:

– معذرة يا افندم..

– اقبضوا على سكان المنطقة، استجوبوهم، تشكل لجان فوراً لمسح أرض الطريق، ومعاينة السيارة والإطارات، وليصلنى التقرير فوراً..

وحين اختلى بنفسه، لم يملك نفسه من الضحك هاتفاً :

– الإطارات الأربعة مرة واحدة .. ياللشيء....

ركزت عينى على شفتيه وهو يردد:

– الإطارات الأربعة..

اندفعت زوجته في اضطراب وهلع، تحسست جسده متسائلة:

– كيف حدث هذا؟

– الإطارات الأربعة ..

– انفجرت ..

– الإطارات الأربعة ..

– حمداً لله على سلامتك ..

– الإطارات الأربعة ..

تعلقت عيناها بشفتيه مشدوهة، ظنته شارد الذهن، هزته من كتفه:

– ما بك ؟

– الإطارات الأربعة ..

خرجت مسرعة، دخل على أثر خروجها كوكبة من عظماء الأطباء، بينهم الأستاذ الكبير، تساءلوا في اضطراب عما يشعر به قال:

– الإطارات الأربعة ..

كلما سألوا سؤالاً لا يصل آذانهم غير عبارة:

– الإطارات الأربعة ..

قاموا بتوقيع الكشف على كل جزء من جسده، كل في

اختصاصه، تبادلوا النظرات الحيرى، وضع الأستاذ الكبير إصبعه بين شفتيه، أشار إلى زملائه فخرجوا فى أثره، وفى الصالون الملحق وقف بينهم قائلاً:

- هناك شئ غير عادى.. يذكرنى بما حدث لـ..

وحين تساءلوا، قص عليهم حكاية الطبيب المهرول، والقوة الخارقة التى أحس بها فى ذراعه، تذكر نتفاً من قصة الفتاة التى التصقت شفتاها وتسببت فيما حدث للطبيب..

على الفور انتقلت كوكبة الأطباء إلى مستشفى العقلاء، وقفوا جميعاً حول سرير الطبيب، ساقاه لا تكفان عن الحركة، انهالوا عليه بالأسئلة، نالوا منه كل الإجابات..

خرجوا يضربون الأكف، يرددون فى تتابع:

- ركلة قدم على المؤخرة تفعل ذلك..

- ضربة على شفتى الفتاة تلصقها..

واستقر الرأى على زيارة الفتاة لمعرفة أصل الموضوع..

حين سألوا عن الفتاة وأسرتها، تطوع رجل قائلاً:

- العقبى لكم جميعاً.. لقد تزوجت بأمير من الأمراء، انتقلت وأسرتها إلى قصره..

ثم عقب فى امتعاض:

- رغم أنه يشاع..

وبعد لأى أردف:

– يقال إنه التقطها من ماخور، كانت فى أيامها الأخيرة مصدر إزعاج لكل المنطقة..

تساءل الأستاذ الكبير منفعلاً:

– كيف ؟

قال الرجل :

– يعنى، تظهر للعيان شبه عارية، تبدو ثملة على الدوام، قامت معارك كثيرة بين الشباب بسببها، منهم من قتل، ومنهم من جرح، ومنهم أيضاً من دخل السجن.. نهايته.. ارتحنا منها..

خاب أمل الأستاذ الكبير، فقال لزملائه فى امتعاض :

– لا فائدة..

عادوا مرة أخرى إلى القصر المنيع، شاهدوا العديد من الطائرات المروحية، رابضة فى فناء القصر، أدركوا على الفور حضور عدد من كبار الأطباء فى العالم، وحين التقوا بهم تبادلوا وجهات النظر، استقر الأمر على أنها حالة طارئة، وتكونت لجنة منهم فى انعقاد دائم تحسباً لأى طارئ، وانصرف الباقون..

دبت جلبة شديدة والأستاذ الكبير فى طريقه إلى مكتبه

بالمستشفى، وحين سأل أحد أطباء النوبتچية، قال:

– الطبيب المجنون فى مكتبك..

قرب باب المكتب هتف الأستاذ الكبير منادياً:

– عزت، أحمد ، حسين ..

وحين وقفوا أمامه قال :

– تعالوا معى..

واقتحم الحجرة فى سخط، لقيه الطبيب ببشاشة :

– توقفت ساقاى والحمد لله يا أستاذى..

بهت الأستاذ الكبير، بإشارة من يده أمرهم بالانصراف، ثم اتجه إلى مكتبه، وحين جلس بحلق فى وجه الطبيب وقال:

– اجلس.. اجلس يابنى..

وأسند ظهره للوراء، شبك كفيه خلف رأسه، واستغرق فى التطلع إلى السقف.. قال الطبيب:

– ألا تقل لى مبروك..؟

اعتدل الأستاذ الكبير وقال:

– مبروك يا سيدى..

– أشكرك جداً..

ثم أردف فى أسى:

– كيف أخلع عنى صفة الجنون؟

ضرب الأستاذ الكبير المكتب بقبضته وقال:

- هناك ما هو أهم.. ألم تسمع عن المؤامرة..

فغر الطبيب فمه قائلاً:

- مؤامرة..

قال الأستاذ الكبير:

- نعم يا سيدى.. مؤامرة لاغتيال الرجل الثالث..

- الثانى يا أستاذى الكبير..

- الثانى، الثالث، الأول لا يهم..

وبعد أن رمق الطبيب بنظرة متأنية طويلة قال:

- وأنت..

هب الطبيب مرتعباً وقال:

- أنا تركت من فورى مستشفى العقلاء..

صوب إليه الأستاذ الكبير سبابته وقال:

- أنت وهى مفتاح السر..

امتقع لون الطبيب، انتابته حيرة جعلت ذهنه المكدود يكف عن التفكير، خرج الأستاذ الكبير من وراء مكتبه، أمسك بيد الطبيب وسحبه وراءه:

- تعالى معى..

توقفت السيارة عند بوابة قصر الأمير السابح فى الأضواء،

الغارق فى أمواج الأصوات العالية للأنغام الراقصة، ودقات الطبول، والدفوف ترن أصداؤها وتملأ الآذان.. اقترب أحد حراس البوابة، عاجله الأستاذ الكبير بقوله:

- أبلغ الأمير بأن الأستاذ الكبير يريد لقاءه..

وقف الأستاذ الكبير خاشعاً بين يدى الأمير، والطبيب يجوس بنظراته فى الصالون الفسيح، فى الأثاث، فى الرياش.. أخرجه من تجواله الأستاذ الكبير قائلاً:

- معذرة، لم أشأ إزعاج سموكم، لكن اسمحوا لى أن أبدأ القصة من أولها..

ظل الأمير مستغرقاً فى سماع القصة، وانتبه فجأة والأستاذ الكبير يقول:

- فلو تفضلتم سموكم باستدعاء حرمكم المصون لسؤالها بضعة أسئلة..

قال الأمير وهو يضرب جرساً:

- بالتأكيد، يهمنى شفاؤه، فقد أفسح لى صدره حين نفتنى حكومة بلدى، ووفر لى الإقامة، والحياة الطيبة..

عندما دخلت زوجة الأمير، لم تتمالك نفسها من الضحك، اقتربت من الطبيب قائلة:

- أعرفك..



ثم جلست، وانحسر ثوبها عن نصفها الأسفل مما جعل الأستاذ الكبير يدفن نظراته فى وجه حذائه، أردفت قائلة:

-أحتفظ لك بسؤال أطرحه عليك الآن، لماذا خرجت من بيتنا مهرولاً؟

قال الأستاذ الكبير:

– هذا ما جئنا من أجله؟

قالت وأصداء ضحكاتها ترن فى أرجاء الصالون:

– ارفع رأسك ياسيدى، أميرى لا يطير الرؤوس..

رفع الأستاذ الكبير رأسه واتجه إلى وجهها بعينيه متسائلاً:

– ما هى حكاية شفتيك الملتصقتين، كيف حدث ذلك؟

رفعت عينين براقتين إلى النقوش البديعة المرسومة فى السقف، قالت:

– كنت أسير فى اليوم العاصف، حين رأيت جمعاً من الناس حول رجل ملقى على ظهره، لا يبين وجهه من الدماء التى تغطيه، حين اقتربت وجدته اختفى، كأن الأرض امتصته، الناس تبحث عنه، أصابنى الخوف، فقد رأيته عن بعد، هممت بالانصراف وأنا أقول «يا حفيظ، أعوذ بالله من الشـ...» ولم أكمل، أحسست بضربة كف على فمى ألصقت شفتى.. هذا كل ما حدث..

قال الطبيب بسرعة:

- تماماً كما حدث لى.. أحسست بركلة قدم فى مؤخرتى، جعلتنى أهرول..

عادت إلى الضحك، استوقفها الطبيب متسائلاً:

- وكيف فككت التصاق شفتيك؟

- الحقيقة..

ثم وهى تومئ له برأسها:

- لا تغضب منى، الحقيقة أن منظرك وأنت تهرول والحقيبة فى يدك جعلنى أشعر برغبة شديدة فى الضحك، فضحكت.. ثم بكيت فرحة وأنا أهتف «بابا.. ماما.. بابا..».

قال الأستاذ الكبير:

- هذا كل ما فى الأمر..

قالت:

- هذه كل الحكاية، بعد ذلك...

قاطعها الأمير:

- لا يهم ما بعد ذلك..

أطرق الأستاذ الكبير برأسه لحظة، ثم رفعها قائلاً للأمير:

- بعد إذن سموك طبعاً، أريدها أن تصحبنا إلى مكان تلك الواقعة..

قال الأمير:

- بكل ارتياح.. أنا لا أمانع..

استقلوا ثلاثتهم السيارة، انطلقت بهم فى مجاهل الطرق، حتى وصلوا، قالت وهى تلوك قطعة لادن بين أسنانها:

- ستعيدنى لأيامى القديمة...

وقال الطبيب:

- سأرى عيادتى بعد انقطاع طويل..

قال الأستاذ الكبير وهو يوقف السيارة إلى جانب النهر:

- هو طريقى المعتاد كل يوم..

وحين تقدمتهم نحو الشجرة الكبيرة، هتفت:

- يا إلهى..

ووضعت يدها على فمها من الدهشة والانزعاج، وقف الأستاذ الكبير والطبيب وهما يريان شخصاً بجوار الشجرة، ممدداً على ظهره، التفت كل منهم بحثاً عن الآخر بعد أن دهمتهم عاصفة ترابية فى عنف، وحجبت الرؤية عن عيونهم، أخذ كل منهم يتحسس طريقه:

وضعت يدى فوق وجهى، وجدت الدم مع التراب قد شكلا قناعاً، تجمد، اعتدلت فى نصف جلسة وصحت:

- أنتم يا من هنا؟ أنتم يا من هنا؟؟ أنت يا من؟؟

اهتدوا على أثر الصوت إلى مكانى، نقلت عينى بينهم وقلت:

- هل تصدقون؟..

تساءلوا جميعاً معاً:

- ماذا نصدق؟

- أننى أستطيع السير فوق الماء..

وقمت لتوى، عبرت السور، هبطت الضفة، سرت فوق الماء..

- تعالى يا مجنون.. ارجع يا رجل..

يأتينى صوتهم كبوق سيارة ينبح فى الضباب..

* * *

(١٩٩٠)

هى امرأة

لاتدرى حسنية أى قدر ساقها الى السكنى فى هذا البيت ، وأى نصيب دفع بها الى خطوات عليها أن تمشيها ، عرفت الشاب حسن الذى يعيش مع أسرته فى الشقة المقابلة لشقتها الجديدة ، يفصل بينهما مسقط النور ، يبث ضياء باهرا ، ينشر هواء نقيا متجددا ، تتقابل نافذتا الصالتين ، ويتواصل ساكنو الشقتين بحبال المودة والألفة والمحبة والجوار . تبادلت معه نظرة خاطفة ، مفاجئة ، أصابت كليهما بالاضطراب ، شئ اهتز فى مكان من صدريهما ، شئ ما تسلل كشعاع الشمس ، يدفئ ولا يحرق ، أضاء مابين الجوانح وأرسل اليها أشعة تحس بها ولاتراها .. يوم كانت بصحبة زوجها عبدالعال تعاين الشقة ، دون ابطاء أصدرت حكمها :

– الشقة معقولة ، نذهب لصاحب البيت ونوقع العقد ..

قال عبدالعال :

– هل رأيت المطبخ ودورة المياه .. لم تعاينى بقية الشقة ..

– معقولة .. لم نجد أحسن منها ..

لم يكن يعنيها فى تلك اللحظة الرهيبة الا التطلع الى السماء

، واستنشاق الهواء النقى .. تحولت النظرة المفاجئة الى نظرة طويلة .. فصيحة .. فاضحة .. أولته ظهرها وتبعت عبدالعال الى شقة صاحب البيت للانتهاء من تحرير عقد الايجار ودفع المقدم ..

كانت لحظة رهيبة حقا دفعت ذكريات قديمة الى التقافز بذهنها فى حركة ونشاط .. كحركة أبى فصادة الذى تراه فى القرية يتقافز وسط الحقول .. لايستقر على حال ، ولاتهدأ له حركة .. يلتقط الديدان ليطعم نفسه ويبقى على حياته .. الديدان فى حركتها اللولبية تملأعقلها ووعيها .. انتهت من الدراسة واكتفت بالشهادة الاعدادية .. أختها الصغيرى قد يسعدها الحظ وتستمر فى الدراسة .. أما هى فقد دفعت الى الزواج دفعا .. كبرت وأصبح يخشى عليها الخروج من البيت .. ابنة السادسة عشرة ناضجة ، جميلة ، ومبارحتها البيت لأى شأن كان خطراً مابعده خطر حتى ولو كان التعليم .. فالتعليم مفسدة لها ، وفرصة لطيش المراهقة .. تقدم عبدالعال للزواج منها .. وافقت الأسرة كلها كما وافق الأخ الأكبر الذى يعيش بعيدا عنها .. يعمل عبدالعال فى احدى الشركات .. يقرأ ويكتب ولاعبرة للشهادات .. يكفى فخرا للأسرة انه ليس فلاحا يحرث الأرض

يلقى بالبذور .. يسقى التربة .ينقي الحشائش .. انه موظف ، وجدير أن يتزوج بها بها .. شرف للأسرة يندر أن تحظى به أسرة أخرى ..

* * *

تزوجت حسنية من عبدالعال .. ألفته فى مودة ورحمة .. أنجبت حمدى .. ازداد حب عبدالعال لها ، وتعلق كثيرا بابنه منها .. عمل جهده على تنشئة الولد التنشئة الصالحة .توج البيت بمجئ علياء الى الوجود ، واكتملت سعادة عبدالعال .. فعمل جاهدا على الانتقال الى المدينة ليتسنى له الاهتمام بطفليه ..

ظل يجوب أحياء المدينة حتى عثر على الشقة ، وجاء بزوجته لمعاينتها .. ووقع مع صاحب البيت عقد الايجار ، وعادا الى القرية ليحزما متاعهما استعدادا للرحيل .. قضت حسنية الأيام الأخيرة قبل الرحيل سعيدة .. مسرورة .. تحلم بالمدينة ، والحياة فيها ..

* * *

كانت حسنية فاتنة بما تحمل هذه الكلمة من معانى جمة تتبادر الى الذهن .. كانت جميلة وهي فتاة .. تألقت وهى امرأة

.. حبتها طبيعة الريف بلمسات من سحرها وجمالها .. نقائها .. وصفائها .. طبعتها بطابع الهدوء والبهاء .. تملك وجها متناسقا يشوب بياضه على الدوام حمرة خفيفة خجلة .. تتوهج اذا ماحدث شئ أثارها .. أغضبها أو سرها .. أفرحها أو أحزنها .. أسعدها .. أو أشقاها وفى أيامها الأخيرة بالقرية دام توهج احمرار وجهها ، بدت أروع من فاتنة .. يتأملها عبدالعال طويلا وهو يشعر بالخوف عليها من حياة المدينة .. يحس بلاء على وشك الوقوع ، فكر في الغاء النقل لكنه وجد صعوبة فى التراجع ، تم النقل بناء على رغبته .. سيثير التراجع الدهشة ..

* * *

عرفت حسنية التفكير ، وأكثر من مرة تساءلت بينها وبين نفسها عما يكون الحظ أو القدر .. حاولت استطلاع قدرها عند ضاربة الرمل ، وعند شيخ من المشايخ المعروفين فى قرية مجاورة .. ارتاحت لقول قارئة الفنجان «أمامك رحلة سفر .. مكان جديد .. رجل أسمر .. يعترض طريقك» .. سألتها فى لهفة : «وماذا بعد ؟ ..» ردت قارئة الفنجان قائلة : «ربنا يحميك لشبابك وجمالك» .. انها تعرف الرجل .. ارتسمت صورته فى مخيلتها .. بل حفرت حفرا بريشة فنان مبدع حقيقى .. تطلعت

الى نفسها فى المرآة .. أطل عليها بنظرته المفاجئة ، فضحت المرآة اضطرابه .. رأت حبات العرق تنبت على جبهته ، وفوق شاربه المحلوق .. تلاعبت شفتاه .. مشطت شعرها واجتاحتها رغبة فى أن تتمايل أمام المرآة .. تتراقص .. تتدلل .. تراقصت وتدللت .. وثقت من نفسها ، ومن جمالها ، ومن فتنتها .. أفاقت من تخيلاتها الممتعة واكتسى وجهها بالوهج الشفقى المبهج .

* * *

تنفست حسنية عبير الحب وهى فى طريقها الى الشقة الجديدة .. الحب الذى افتقدته.. كانت تحسد قريناتها فى القرية على حبهن .. شغفت بسماع قصص الحب من رفيقاتها .. لقاء الحبيب .. كلمات الحب الرنانة .. الهمس .. اللمس .. النظرات .. عرفت كل قصص الحب التى تحيا فى القرية .. تمرح بين الحقول .. تغرد فى الليالى القمرية .. لم يكن لها قصة حب حقيقية .. عاشتها وتمتعت بها .. أحبت .. كان حبها من طرف واحد .. لم يعرف الحبيب وتزوج بأخرى ، أحبت ثانية .. لكن الحبيب رحل الى المدينة لاتمام دراسته ، أحبت مرة ثالثة وتمتعت بدفء الحب .. ذاقت طعمه .. احتضنت حبيبيها وضمتهما الى صدرها فى حنان ، وقبلتهما .. أحبت طفليها

حمدى وعلياء .. ليس لها فى الدنيا سواهما .. تسعدهما ويسعدانها .. تفرحهما ويفرحانها .. تعيش بهما ولهما ومن أجل حياتهما ..

* * *

عانت حسنية كثيرا ، وقعت فريسة للمقارنة اللاواعية بين حسن وزوجها .. عانى عبدالعال أمراضا تكالبت عليه فى عهد الطفولة .. شب ضعيف البنيان .. نحيف القوام .. ممتقع الوجه .. بينما هى تتمتع بالصحة والشباب والحيوية .. ويتراءى لها حسن معتدل القوام . قوى العضلات .. وفير الحيوية .. جم النشاط .. تلهو برأسها أحلام اليقظة .. ترى نفسها فى صحراء شاسعة .. قاحلة .. قفر من البشر .وحيدة .. تائهة .. يظهر حسن فجأة على مبعدة يناديها .. يهرول اليها باسطا ذراعيه .. يأخذها بينهما .. يضمها الى صدره .. يضغطها بقوة تسعدها .. يسرها التلاشى بين ذراعيه .. يقبلها في عنفوان الشباب .. تسرى فى دمائها المثلوجة حرارة الحب .. يذوب الثلج .. تنتشى بالهناء .. ترفل فى السرور .. فجأة تفيق على صوت عبدالعال الضعيف الواهن .. تنظر اليه بأسى .. ترمقه بعين دامعة .. تخرج من ملكوتها الأعظم لترتطم رأسها بأرض الواقع ..

عبدالعال يأمر .. حسنية تطيع طلباته صاغرة .. تحيا أسيرة العادات التى اكتسبتها بالمران والممارسة بما فيها مشاركته الفراش .. شعرت بثقل العادات راسخا كالصخر فوق صدرها .. ثقيلا كقالب الطوب فى قلبها .. تفر ثانية الى أحضان حبيبها .. تطارد الوعى فى رأسها .. فقد راقت لها الغيبوبة وتمنت أن تعيش فيها أبد الدهر ..

* * *

كان الجوار بين المنزلين يبدو وكأنه صنع خصيصا منذ سنوات طويلة ليشهد بعد فوات كل هذه السنين قصة حب .. قصة غرام متلهب .. تبادل الحبيبان النظرات ، والبسمات .. القبلات كالفراشات الهائمة بين النافذتين .. تأكدت حسنية من أن الحب يصنع المعجزات .. يضفى شفافية وصفاء على المرئيات .. يكسب الأشياء جمالاً أخاذا ، وسحراً فتاناً .. كأن الجدار الفاصل بين الشقتين لوح من الزجاج الشفاف .. يرى كل منهما الآخر في يقظته ونومه ، وفى اطمئنانه وقلقه .. يتناجيان ويتهامسان فى وقت مبكر قبل يقظة الأحياء .. أو فى وقت متأخر بعد نوم الأحياء ، يعيش حسن فى البيت أشبه بالسجن .. كف عن الذهاب الى أصدقائه ، امتنع عن الخروج

الذى اعتاده للتنزه .. أو للذهاب الى السينما .. دنياه لاتضم سوى حسنية ، وقصة الحب التى يحياها ..

* * *

أيقظ الحب أحاسيس حسنية ، أرهف أذنيها وأكسبها حساسية فائقة .. تراءى لها بعض الدخان يملأ الهواء .. تناهى الى سمعها بعض الكلمات .. فللناس حاسة تلتقط الدخان قبل اندلاع النيران ، ولعلهم محقون .. فالبنزين الى جوار عود الثقاب .. أى احتكاك بسيط .. شرارة واحدة وتندلع النيران .. رأت النسوة الشباب يلقى بالزوج الكهل - قبل الأوان - خارج الحلبة .. فكرت حسنية كثيرا .. فلاهى بقادرة على التحكم فى عواطفها ، ولا هى قادرة على خنق حبها ، ولا هى بمستطيعة المداومة والاستمرار .. غلبها الحب على أمرها .. فدبرت أمرا وجدت فيه مخرجا من فضيحة وشيكة الوقوع ..

* * *

حضرت أختها ايمان بعد انتهاء العام الدراسى ، لتقضى الأجازة الصيفية .. رآها حسن .. رأى فيها حسنية قبل أن تتزوج .. هى اليوم امرأة متزوجة .. أنجبت مرتين .. أكسبها الانجاب أنوثة فجة تشع جاذبية ، ترسل ذرات اغواء بالغة

العنف والخطر .. أما ايمان .. الفتاة الساذجة .. البسيطة .. العادية ، .. فهي فتاة العمر حسبما زينت له حسنية .. رأى فيها الماضى والحاضر والمستقبل .. رآها خير من يختار ليشيد بيتا سعيدا .. حدث أمه ، تحدثت بدورها الى حسنية .. ابتسمت حسنية للنجاح الذى حققته ، وهى تسدل الستائر الشرعية على حبها ، وتخرس ألسنة الناس فى حلاقيمها .. تبددت سحابات الدخان التي خيمت على علاقتها بالجيران .. نجحت فى خداع ذوى الألسنة الطويلة .. ظهرت أمامهم بمظهر المرأة الواعية التى مهدت الطريق لزواج أختها .. أشعرها النجاح بلذة النصر .. وثقت من بقاء حبها أبدالدهر .. يعيش ويتنفس وينمو .. وقع أيضا فى الشرك عبدالعال الذى أعلن تطوعه لاتمام الزواج، فلن يجد حسن خيراً من ايمان شريكة لحياته ، ولن تجد ايمان شابا أحسن منه ليكون زوجا لها .. بدأ الحديث يملأ الأسماع عن هذا الزواج ، واستمر الحديث ردحا من الزمن يحسب بالسنين ، وعلاقة الحب تجد الحماية والشرعية .. فتنمو ، وتكبر .. غفت عيون الجيران .. وكفت الألسن عن الحدس والتخمين ..

* * *

تعانى حسنية الوجه الآخر للحب ، كرهت زوجها .. كرهت

أصدقاء حسن .. كرهت أختها ايمان التى بدأت تستأثر بانتباه حبيب القلب .. ثلاثة تمنت لهم الدمار .. عبدالعال وايمان ، وكامل صديق حسن وتوأم روحه لأنه أدرك العلاقة فى مهدها ، ويحاول بشتى الطرق تقويضها ، تصيبها نظرات عينيه بالرعب ، وتشل عقلها عن التفكير .

بدأت خطوات عبدالعال تتعجل اتمام الزواج ، لأنه خنجر حاد قاطع للشر الذى يخشاه ، والقضاء على خطر يحث الخطا نحو بيته .. وبدأت الغيرة تضفى على مشاعر حسنية نحو أختها بعض البغض .. ينشب بينهما العراك لأسباب تافهة .. تتطلع حسنية الى يوم رحيل أختها تطلع النبتة الى شعاع الشمس ، تحاول ايمان ايقاف عجلة الزمن .. تشوه حسنية صورة حسن أمام أختها وتذم أخلاقه وسلوكه ، بينما تحيط أختها صورته باطار ذهبى وتمتدح أفعاله وتثنى على خصاله ، تشتعل بينهما المضايقات.. أخذ ورد ، تأنيب وعتاب ..

رحلت ايمان مرغمة لبدء الدراسة ، سرعان ماروجت حسنية لفشل موضوع الزواج ، اختلقت أسبابا ، مرة بسبب الدراسة ورغبة ايمان فى دخول الجامعة ، ومرة بسبب قلة موارد الأسرة وعدم القدرة على اتمام الزواج ، ثم قصة حب وليدة بين ايمان

وأحد أبناء القرية من أسرة ميسورة الحال ، تملك الأطيان ، ارتاحت وتنفست الهواء فى اشتهاء لنجاحها فى نسف موضوع الزواج بالديناميت ، ولا يدرى عبدالعال سر التحول الغريب فى موقف ايمان بعد سفرها الى القرية ..

* * *

يتوقف حسن على أبواب العقد الرابع فى دهشة .. كيف فرت سنين العمر ؟ يجد نفسه محاطا بأفواه تقذفه بالطوب والحجارة ، بالغضب والسخط ، شاع أمر علاقته مع حسنية ، نشبت المعارك بينها وبين أسرته من جانب ، بينها وبين كامل من جهة أخرى ، بينها وبين زوجها من ناحية ثالثة ، وبعد ليال أمضه فيها التفكير استقر على ضرورة زواجه من أى فتاة ذرا للرماد فى العيون ، وحين أعلن رغبته تلك كسب ود الأسرة ، التفوا حوله فى سرور ، كما أظهر كامل السعادة والغبطة .. وفى لقاء بين حسن وكامل ، فى أمسية خريفية ، استعرض كامل ماسببته حسنية من مشاكل ، وأقاويل تمس الشرف والكرامة ، قال فى غضب :

– هى تتمتع بالبيت والزوج ، وأنت تقدم لها الحب ، يالها من حياة سعيدة ، سعيدة حقا ، الحب والبيت والزوج والأولاد ،

غاية الغايات لأى امرأة ماتتمتع به حسنية .وأنت .وأنت.. ماذا قدمت لك بحبها ؟

– لا أريد منها سوى الحب ..

– وماذا بعد الحب ؟ .. هل يقدم لك البيت .. الزوجة .. الأطفال .. هل يقدم لك السنين التى فرت من عمرك ؟ .. هل يقدم لك قلبها مسحوق اعادة الشباب والكهولة اليك ؟ .. هل ..

ويستطرد مغتاظا :

– ألا تشعر بالغيرة تنهش قلبك وهى بين ذراعى زوجها .. ألا تشعر بالحياة تصطرع وتتقاتل فى داخلك وهى تنعم بالهدوء .. ألا تشعر بالضعة والضآلة وأنت قلق مؤرق وهى تنام ملء جفنيها الطمأنينة ..

ويردف فى سخرية :

– تنعم بمتعة القلب مع حبيب جاهل ، ومتعة الجسد مع زوج غافل .. يالكما من أحمقين .. أنت وزوجها .. أه لكم أود أن أسحقها ..

فتحت ثورة كامل عينى حسن على مستقبل مظلم .. سراب يلهث بالجرى وراءه .. وحدة تفغر فاها لا بتلاعه .. شيخوخة تستل خنجرها من غمده لتقضى عليه .. يشعر بثقل الحب ..

وفداحة الثمن الذى يدفعه من صحته ، ومن روحه ، ومن أعصابه .. يتوسل الى كامل بدموعه الحارة طالبا نصحه ومعاونته فى طريقه الوعر .. يقول حزينا :

– تغلغل حبها فى كيانى .. كيف اتغلب عليه ؟

– لاداعى للحزن ..

ويحاول الترفيه عنه .. فيبتسم قائلا :

– بينى وبينك .. ألم تقبلها مرة .. ؟ .. ألم يضمكما سويا مرقد متعة ..

– لم يحدث قط ..

يبتسم كامل ابتسامة ساخرة ويقول :

– منتهى الذكاء منها كامرأة ، عرفت من أين يؤكل كتفك .. يقينى أنها تبغى الاحتفاظ بك مدى العمر ..

– اننا متحابان وحبنا عندى أهم من أى قبلة .. أو أى .. اننى ...

قاطعه كامل :

– كف عن هذه المغالطات .. قبل كل شئ هى امرأة .. تريدك نارا ملتهبة ، تمدها بالدفء دون خسارة ، أفق ياحسن .. لن ينفع حبها العذرى أشلاءك المحطمة .. أفق ياصديقى ..

* * *

ذات يوم عاد حسن من عمله ليجد حسنية في شقة أسرته .. قابلته أمه وهى تهبط الدرجات لأمر طارئ .. جلس الى جوارها وتبادلا حديثا بدا لأول وهلة مضطربا .. أمسك يدها .. لامس جسده بقصد جسدها .. طوقها بذراعيه .. امتنعت .. حاولت دفعه .. خشيت اغضابه بكت متوسلة أمام اصراره وعناده وقوة عضلاته :

- حسن .. أرجوك ياحبيبى .. لاتقتل حبنا .. أرجوك .. أكرهتنى الى هذا الحد ؟

سقطت كلماتها دشا باردا أثلج بدنه .. أطفأ جذوة النيران المستعرة .. قال لاهثا :

- أنا أكرهك ياحسنية .. أنا أموت لو فعلت ذلك ..

- أحبك ياحسن .. ماتريد رغبة وقتية .. أحبك بكل كيانى .. أنا أكثر منك رغبة .. لكن حبى يمنعنى .. الرغبة تقتل الحب ياحسن.. بعدها سأقتل نفسى .. تذكر ياحسن ..لاتنسى حبى..

أذابت كيانه كلماتها .. هدلت بنيانه غزارة دموعها .. أثلجت الدماء فى عروقه ، وأطفأت كل الأفكار فى عقله .. أطاحت بكل مارسمه لمستقبله .. بدت أمامه الصدق المطلق وكل ماعداها أكاذيب وأباطيل ..

نجحت حسنية في الفرار .. تركته متهالكا مخذولا خائر القوى .. بارد الأطراف يتحسس العرق المتجمد البارد اللاصق ببدنه ، ضربت أمه صدرها بيدها وهى تراه على هذه الحال .. وبعد اصطدامها بحسنية على الدرج صور لها ظنها حدوث شئ ما بينهما .. صرخت .. لطمت خديها قائلة وهى تشير الى باب الشقة :

– فيما بقاؤك ؟ .. أخرج من بيتى .. لست ابنى ولا أنا أمك..

لم يتحرك .. خلع ملابسه واستلقى فوق الفراش .. يتلقى تأنيب وشتائم أمه ساكنا لا حراك فيه .. جاء أبوه ووقف على ماحدث من كلمات زوجته .. دخل اليه .. يحاول التمسك بالهدوء ومرجل من الغضب يغلى في صدره :

– يكفى هذا .. ربيتك .. أطعمتك وألبستك وعلمتك .. اشتغلت ولم أحصل من ورائك على شئ .. أخرج ولا ترينى وجهك .. عندى بنات.. لاتفسد بيتى أخرج .. ماذا تريد منى تخطيت الثلاثين ياأخى .. لن يلومنى أحد اذا ألقيت بك الى الشارع .. اذهب إعمل معروفاً ودعنى أربى أخوتك ..

ارتدى حسن ملابسه .. حمل حاجاته فى حقيبة كبيرة وخرج من البيت.. قصد بيت صديقه كامل .. وقص عليه ماحدث ..

* * *

وبعدما عاد الهدؤ الى البيت أخذت أم حسن تلوم زوجها على طرد حسن .. بكت وظلت تبكى مطالبة زوجها بإعادته يضرب كفيه وهو يصرخ :

– ألم تكن رغبتك ؟ هه .. ألم تثورى عليه ..

– كنت غاضبة ..

– انت السبب .. دمرت بيتى انت وابنك ..

استمر الشجار بين الأب والأم .. يدخل الى البيت فيجدها باكية .. يعنفها .. يغادر البيت وتركها باكية .. يهب من نومه على صوت بكائها .. يرسل آخر الأمر فى استدعاء كامل ، ينفى كامل كل سوء الظن الذى تسلل الى عقل أم حسن .. يقسم لهما انه لم يحدث شئ قط ، وأن حسن وحسنية بريئان مما اتهما به ، يعود حسن الى البيت .. تلقاه أمه باللوم وهى تضمه الى صدرها فى حنو بالغ ، وحب لايعرف غير الغفران ..

* * *

لم تدم القطيعة بين الأسرتين طويلا .. اذ تمرض أم حسن وتنقل الى المستشفى .. تجدها حسنية فرصة مواتية لا عادة العلاقات الى ماكانت عليه .. تتلقاها أم حسن مرحبة .. بقلب ودود ، وروح طيبة .. وتنتهى الزيارة .. يغادر حسن المستشفى

بصحبة حسنية بحجة توصيلها .. يسيران معا فى نزهة خلوية .. تبدأ حسنية الحديث بعد طول صمت :

– أرجوك ياحسن أن تتزوج .. لايجب أن يكون الحب عائقا لاهيا لك عن مستقبلك .. لاتضيع زهرة شبابك ابحث عن عروس..

– لم أجد العروس المناسبة..

– ابحث .. حاول .. ستجدها دون شك .. اننى أؤنب نفسى على أنانيتى .. أجل .. كنت أنانية فى حبى لك .. لكنى الأن أعقل من أى وقت مض .. أفاقنى سوء ظن أمك الى الحقيقة .. الحقيقة التى يجب علينا مواجهتها ..

– لاداعى للحديث فى هذا الموضوع .. قلت سأحاول ..

– كن جادا فى محاولاتك .. اذا كنت تجبنى عش حياتك .. ها أنت ترانى أحبك ، وأعيش مع زوجى .. أعيش حياتى العادية .. أحب بيتى .. أحب أولادى .. لم أقصر لحظة واحدة فى واجباتى ..

– ألن تشعرى .. ألن ..

وبعد تردد :

– ألن تشعرى بالغيرة مثلا ..

– الغيرة .. معك حق .. ستحرقنى .. لكن ذلك لن يدوم طويلا .. فالحقيقة يمكن أن تكون قاتلة لأى شئ .. عدنى ياحبيبى ..

– بما أعدك ياحسنية .. اذا وجدت من تلائمنى سأتزوج .. هذا كل مافى الأمر ..

صمتا .. أمسكت يده .. احتضنتها ، وكأنها تقول له بلغة لايفهمها «لن تفلت من قبضتى» .. كاد ينطق قائلا وهو ينظر الى عينيها الساحرتين «مستحيل أن أحب غيرك» ..

سقطت الكلمات في جوفه .. اتجها الى المحطة .. ركبا الأتوبيس .. الزحام على أشده .. يضطر الى حمايتها بوضع ذراعه فوق كتفيها .. يتلصق جسده بجسدها .. يسرى الدفء بينهما .. تصطك ركبتاه .. تمد ذراعها وتضعه حائلا بين جسديهما .. تشرد بأفكارها .. تتمنى أن تخلو العربة من كل ركابها فى التو واللحظة .. تتمنى أن يصاب جميع الركاب بالعمى ، والصم .. تتمنى أن تستسلم لأحضانه راضية سعيدة مقتنعة بقدرها .. إنه لها اليوم ، ولن يكون لها فى الغد .. انها بين ذراعيه قبل أن تحتل أخرى مكانها .. تتمنى موت زوجها الآن وقبل الغد .. تمنت أن تفقد الوعى .. فالنار تسرى سريان

الدم فى العروق والشرايين .. كل العروق والشرايين تؤدى الى القلب وتخرج منه .. عبدالعال والعادة المرذولة فى فراش بارديصيبها بالغثيان .. اعتادت أن تبصق عليه بعد أن يستلقى مرهقا .. لحظة ويرتفع شخيره ، تبقى ساهرة .. مسهدة .. مغتاظة .. تحتقر نفسها .. تنقم على حياتها .. على قدرها الذى انتزعها من بستانها قبل أن ترى وجه حبيبها .. تنقم على أسرتها للموافقة على الزواج قبل أن ترى حسن . تكاد من السعادة والتعاسة معا أن تتهاوى .. تخر راكعة متوسلة مقبلة قدميه ألا يتركها أبدا .. أن ينقذها من الضياع .. أن يقتلها انقاذا لها من حبها العاتى .. الطاغي الجبار ..

أغرقت نظرات الركاب حسن فى بحيرة من العرق .. دفعها أمامه الى مغادرة العربة ، واستقلا تاكسيا نقلهما الى البيت .. الدش البارد مهدئ للأعصاب المشدودة .. امتص الثورة التى تأججت وأوشكت على تدمير كل شئ .. وقفا أمام نافذتيهما يتبادلان الابتسامات ..

* * *

منذ بدأت لحظة الحب بينهما وهى حريصة على عدم تحول حبها الي رماد .. تبعد أشياءها عن النار .. فى داخلها نار ،

ومهما أكلت النار من نفسها فلا شئ يتحول الى رماد .. بل دوما تبقى النار مشتعلة .. يوم تجد نفسها معرضة لخطر فقد حبيبها ستلقى بكل أشيائها الى النار ، وليكن الرماد ، ولتبدد الرياح رمادها .. ساعتها تكون اللحظة قد انتهت ، ووصلت الى نهاية الرحلة .. يوم عادا معا من المستشفى كانت على وشك أن تنهى لحظتها بنفسها .. كادت تقدم للنار أشياءها ويتبقى الرماد .. لكن اللحظة امتدت الى حين .. حتى يجد حسن عروسه ، ويقطع مشوار الزواج .. ساعتئذ غاية الغايات أن تتحول النار الى رماد ، وقررت أن يكون لها قبل أن يكون لعروسه .. فلا أسعد لها ولا أمتع من قطف أولى ثمار حبيبها ، ولتكن زوجته بعد ذلك الفازة التى تنقل إليها الزهور بعد قطافها من الحديقة..

* * *

كانت الرحلة رحلة عمل قبل أن تكون رحلة للتمتع بالحياة الهادئة فى الريف .. تمتع كامل بهدوء الريف ونقاء هوائه .. تمتع برؤية بساطه الأخضر الممتد الى مالا نهاية يعانق الأفق عناق الحبيب للحبيب .. تمتع بالسير وسط الحقول اليانعة .. الليل الصامت الساكن يهز سكونه وصمته نقيق الضفادع .. موسيقى ترتاح لها الأذن .. خرير الماء فى الجدول الصغير

شدو هادئ .. تعرف كامل خلال رحلته الى كل أقارب حسن .. زارهم في بيوتهم .. دعى الى موائدهم .. رأى كامل العروس التى ذهبا للاتفاق على خطبتها لحسن .. لم تعجبه .. كما لم تعجب حسن . لمح كامل ابنة مضيفتهم - خالة حسن - لفتت نظره .. شغلت فكره .. فكر فى الزواج بها .. فكر فى التحدث الى حسن بشأنها لكنه فجأة كف عن ذلك كله .. فهو متزوج ، ويعيش مع زوجته فى سعادة وهناء .. انما هى نزوة من نزوات القلب .. أو العين ..

استاء كامل للعودة من رحلتهما خاليا الوفاض .. جلسا ليلة ماقبل الرحيل يتحدثان .. يروى حسن سوء حظه ، وعدم توفيقه فى العثور على عروس يقترن بها .. قطع عليه كامل استرساله قائلا :

- مارأيك ياحسن فى ابنة خالتك ؟

تطلع اليه حسن مندهشا :

- من ؟ .. جميلة ..

- اسمها جميلة ، هى حقا والله لجميلة .. انها لفلتة من فلتات الحقب والزمان ..

قال حسن فاغرافاه :

– إلى هذا الحد بهرك جمالها ؟ ..

– الذى يبهرنى حقا انها مولود يسمى نفسه .. كان يمكن أن تسمى خضرة ، أو قمر ، أو ست الحسن .. أما وقد سميت بجميلة .. فهذا اختيارها وحدها ..

تململ حسن .. اضطجع ثم اعتدل .. أشعل سيجارة ونسى أن يقدم سيجارة لكامل .. تناول كامل سيجارته بنفسه .. قال حسن :

– آسف .. نسيت أن أقدم لك واحدة .. تصور .. لم تخطر على فكرى أبدا ..

– قطعا .. عندها وأصابك العمى ..

– لكنها صغيرة .. بينى وبينها عدد من السنوات ..

– وهل تظن أن تقارب السن من أسباب نجاح الزواج ؟

– لاأعرف .. لكنى أريد فتاة ناضجة ..

– لاياحسن .. لا ياحبيبى .. هذه مغالطات .. انك فوق الثلاثين .. معنى هذا لجيلنا اننا ورثنا الكثير من طباع آبائنا .. فى الروايات نجد سعادة الزوجين المتقاربين في السن ، لكن الرواياتتنشد ماينبغى أن يكون .. ترى الزوجة تناقش .. تبدى

الرأى ... تشارك فى صنع الحياة .. نريد ذلك حقاً .. لكن مانراه نفشل فى تحقيقه .. فى داخلى كثير من أبى .. أنت مثلى .. تريد زوجة تعرف انك رجل وهى امرأة .

ثم قال كامل مداعبا :

– لكن مارأيك ؟ .. أليست جميلة ؟

– لا أنكرها حقها فى الاعتراف ، طيبة .. ودودة الى أقصى الحدود .. ابنة خالتى وأنا أحبها .. كما رأيت أقاربى كثيرون ولا أرتاح عند أحد غيرها ..

– لاتنس انك لن تتزوج اليوم أو غدا .. أمامك سنوات تعد فيها نفسك للزواج .. تحتاج الى معسكر عمل طويل لتوفير ضرورات الزواج ..

انشرح كامل لاقتناع حسن بمثل هذه السهولة والسير .. أمضيا الليل مضطجعين يتحدثان .. امتلأ حسن بالحماس .. كاد من فرط حماسه أن يقول لكامل فى الصباح انه يحب جميلة ، ولن يحيا بدونها .. انشرح كامل لنمو الفكرة السريع خلال سويعات الليل .. شد على يد صديقه مهنئا :

– مبروك ياحسن .. اننى فى غاية السعادة ..

* * *

زلزل النبأ كيان حسنية .. اعتراها فى التو تغيير ملحوظ .. دون سبب ظاهر .. قامت بايذاء حمدى بالضرب والركل ، فرت علياء الي شقة أم حسن هربا من غضبها .. أدركت أن الصيد أوشك أن يطير ، سيخلو القفص الذهبي من صغيرها المغرد .. نقل اليها حسن الخبر بنفسه .. خرجت تهنئتها من تحت الضروس بمشقة .. لو تلكأت الكلمات قليلا لا نخلع الضرس وظلت الكلمات محبوسة داخل حلقها ..

كان حسن فرحا وقد اختمرت الفكرة فى رأسه .. فكرة أن يكون له البيت المستقل .. البيت الذي يتحكم فيه وحده .. زوجة جميلة .. سعادة موثوق منها .. حب لابد أن يولد .. أبناء يفكر فى تنشئتهم التنشئة التى كان يتمناها لنفسه .. انتشى قلبه بفكرة الاستقرار .. أخذ يلوم نفسه علي انسياقه فى تيار حب لاجدوى من ورائه الا الضياع .. لم يعد مقتنعا بالحياة فى بيت الأسرة .. يتساوى مع أطفال الأسرة .. يأكل مايريدون لا مايريد .. لايهتم بأمره أحد .. شعر بنفسه كبيرا على الحياة بين أفراد الأسرة .. وماذا بعد ؟ .. السنوات تمر فى غفلة منه .. سيصل الأربعين دون زواج .. محال .. شعر بالرجولة الحقة تدب فى كيانه ، والاستقلال يشرح صدره للحياة ، والمسئولية

تناديه .. أن يكون مسئولا عن بيت وأسرة .. ذلك منتهى السعادة ، وليذهب حبه لحسنية الى الجحيم ..

* * *

انتقلت الأسرة والمدعوون الى الريف .. بعدما تم الاتفاق على الخطوبة ، وتحدد الموعد .. كانت حسنية ضمن المدعوين .. كان الحفل بهيجا .. فوجئ الجميع بوالد حسن يحضر وبصحبته المأذون .. هرول حسن الى كامل وسأله عما يحدث .. انتحى كامل بالأب جانبا .. ضحك الأب وقال فى كلمات دون ترتيب :

– خير البر عاجله .. فعلت ذلك لأقيده .. حسنية تلعب بعقله .. انه ابنى وأعرفه ..

ابتسم كامل مسرورا وقال :

– خير مافعلت ..

سر الجميع لاتمام عقد القران ، واقتنع حسن بصواب رأى والده .. ظل كامل يتابع حسنية وقد انتبذت لها مكانا منعزلا .. ترقب الفرح والسرور وهى تتلظى بنيران الغضب والثورة .. بمجرد انتهاء عقد القران تهيأت وزوجها للانصراف .. خرج كامل لوداعهما .. قال ساخرا وهو يرمقها بنظرة المنتصر :

– فيم العجلة ؟ .. لم يبدأ الحفل بعد ..

قالت وهى تكاد تبصق فى جهه :

- مشوار سفرنا بعيد ..

استمر الحفل الى مابعد منتصف الليل .. تناول الجميع العشاء .. انضمت جميلة وحسن الى زمرة الأصدقاء ، وأقيم حفل أخر استمر حتى مطلع الفجر اقتصر على الأصدقاء .

* * *

لم تنم حسنية ليلتها ، ولم يغمض لها جفن .. لم يكن الأمر هينا .. بل كان صدمة عنيفة رجت أعماقها رجا .. زادت نقمتها على كل شئ .. امتلأت روحها بالاستياء من الحياة .. ظلت مؤرقة طيلة الليل .. تغادر الفراش لتجلس الي جوار النافذة .. ثم تغادر الحجرة لتصعد الى السطح .. عقلها شارد .. قلبها منفطر .. يدق دقاته بلا نظام .. ثائرة .. تعانى لوعة مرة .. جف لعابها .. الليل حالك الظلمة .. السماء قفر من النجوم .. تراءى لها حسن مع جميلة .. يتهامسان .. يتناجيان .. تشتت منها الفكر والنظر .. غامت عيناها .. بكت .. فجأة لم يعد لها فيه شئ .. لم يعد لها حب .. لم يعد لها سعادة .. لم يعد لحياتها طعم .. صبت اللعنات على رأس زوجها وهو يناديها :

- أنزلى ياحسنية لئلا يؤذيك برد الصباح ..

– سأنزل ..

أنحت باللوم على نفسها .. فهى امرأة أحبت .. عرفت كيف تسلب حبيبها كل شئ .. عقله وقلبه .. لكنها لم تضع فى معصميه طوق الأسر .. لو تركت مرة شفتيها بين شفتيه لذاق طعما للحب يعلق باللسان أبد الدهر .،. ولاعتاد المذاق الحلو .. لو أسلمت له كيانها وتمتع بوجه الحب الآخر لاستسلم لقيادها ، واعتادها .. لو كانت .. لو كانت ، ودقت الأرض بقدميها ثائرة فى مرارة :

– لالا .. لا يجدى التمنى شيئا .. ملعون كل شئ على وجه الأرض..

كان تصميم عظيم الشأن يجول فى فكرها .. فلابد أن تحتفظ بحبها .. لابد أن تدمر كل شئ يقف حائلا بينها وبينه .. لابد أن تثأر لحبها من الجميع ..

* * *

أمضت حسنية عدة أيام عند أسرتها فى الريف .. ثم عادت .. عادت وكأن الصدمة أكسبتها مزيدا من الجمال والفتنة .. أدركت حسنية سحرها أمام المرأة .. ازدادت فتنتها طغيانا وهى خارجة من الحمام .. فى قميص يتموج مع نسمات الهواء

.. تلف رأسها بفوطة الحمام .. تطهرت من آثار السفر ولم تتطهر نفسها الجريحة .. أخذت تروح وتجئ فى الصالة كشيطان يعمل على اغواء رجل آمن .. نجح الشيطان سريعا ، وانتقل القلق إلي حسن .. أخذ هو الآخر يروح ويجئ فى الصالة بشقتهم ، حاول لفت نظرها .. ناداها .. تهربت منه .. تصنعت انشغالها باعداد الطعام ، وأخيرا بعدما طار صوابه .. وقفت الى جوار النافذ تضغط شفتها السفلى بأسنانها الناصعة .. تشهده غارقا في غيبوبة رغبة جامحة .. يكاد لعابه يسيل على جانبى فمه .. تبادلا بعض الكلمات .. ردت عليه فى دلال لم يعهده ، واغراء لم يألفه .. بدت وكأنها تقول له «أينا أجمل ؟ .. أنا أم جميلة ؟ ..» ثم تركته وانصرفت .

وفى المساء أرسلت ابنها حمدى وعلياء .. نادت زوجها وكان جالسا مع والد حسن .. لبى عبالعال نداءها صاغرا .. أغلقت جميع نوافذ شقتها .. أطفأت جميع الأنوار .. أضاءت لمبة حجرة النوم الحمراء .. اخترق حسن بنظراته الجدار الزجاجى ورآها تتهادى نحو الفراش كجنة متنقلة .. امتلأت روحه بالسخط والغضب ، واشتعلت فى بدنه نيران الغيرة .. هب من جلسته وارتدى ثيابه وخرج هاربا من البيت ..

* * *

جلس حسن فى الملهى يصب الخمر فى جوفه .. يضرب رأسه بقبضة يده .. هيأت له الخمر مايدور فى حجرة النوم .. تحت وهج الضوء الأحمر .. هيأت له أن يزيح عبدالعال من الطريق ، ويصل الى عرشها فوق جثته .. هيأت له كل الهواجس الشريرة الكامنة فى أعماقه .. أن ينفصل عن جميلة ويأخذ حسنية ويفر بها الى أخر العالم .. هيأت له اقتحام شقتها فى غياب عبدالعال .. ارتضى أخيرا التهيؤ الأخير وعزم على تنفيذه..

عاد حسن الى البيت يترنح ثملا .. أثار الذعر فى الشقة .. استيقظ على هذيانه كل أفرد الأسرة ، وتناهى هذيانه اليها وهى راقدة تحدق فى سقف الحجرة .. أسرع الى الحمام وأفرغ مافى جوفه .. ثم عاد واستلقى على الفراش جثة مكدودة متعبة..

ابتسمت حسنية ، ارتاحت روحها المتقلبة الثائرة .. هدأت خواطرها .. اغمضت عينيها ونامت فى طمأنينة .

* * *

الضياع والشرود والتيه يدقون رأسه .. طعم الحياة مر المذاق لاصق بطرف لسانه .. العمل والبيت والأسرة والأصدقاء .. الشوارع والملاهى والأحاديث .. الحياة كلها مجموعة من

التوافه .. الحب والزواج والاستقرار تعابير جوفاء .. الماضى والحاضر والمستقبل أوهام وتخيلات .. الشباب والرجولة والكهولة أباطيل وأكاذيب .. الحياة رغبة .. الوجود رغبة .. الحب رغبة .. الزواج رغبة .. الطعام والشراب والملبس والمأوى كلها رغبات .. الجنس المحرك الحقيقى للحياة .. لولاه ماوجدت الحياة .. الحب كلمة رقيقة مهذبة له .. الزواج أسلوب منسق للمتعة .. البقاء والفناء .. الدنيا والآخرة .. كلها مصطلحات من صنع البشر .. اختلطت في رأسه كل المعانى ، وامتزجت تخيلاته وأفكاره فى تراكيب معقدة .. وقفت سنوات الحب الطوال أمامه كشريط سينمائى .. يعرض ماحدث يوماً بيوم .. ساعة بساعة .. لحظة بلحظة .. يذكر الليالى التى كانت تنام فيها الى جواره يفصل بينهما الجدار .. تدق بيدها دقة يردها دقتين ومعناها «أحبك» .. فتقول دقاته «أحبك ..أحبك» .. يدقها دقتين .. تدقها ثلاث دقات ومعناها «لاتنامى سنلتقى فى الصباح الباكر» .. فتقول دقاتها الثلاث .. «لايعرف النوم طريقه الى» .. كان حديثا يدور أثناء الليل بلغة الطرق على الجدار .. عندما يعود من عمله فى وردية الليل يجدها فى انتظاره بالشرفة .. تعد له الشاى وتناوله من النافذة .. الليالى الطوال التى

قضياها معا بجوار النافذة فى همس ولمس وهيام حتى مطلع النهار.. جمالها روعتها وهى تهمس له «حبيبى» .. زوجها المسلول الهزيل يتمتع بفتنتها وجمالها .. يأمرها فتطيع .. يشبع رغباته ويتركها تجوع .. يغط فى السبات العميق ويتركها للأرق والقلق .. هو أولى بها منه .. هو أحق .. هى له وهو لها .. لولا ذلك ماجمع بينهما القدر .. القدر .. القدر .. وأمسك برأسه صارخا:

– القدر .. ياله من صداع ملعون ..

سقط حسن مريضا بعد عدة ليالٍ دار فيها الصراع فى رأسه .. يشعر بجدران رأسه وكأنها مشققة من الداخل .. رأسه مصدوع على الدوام .. يعانى الغثيان ودوار الرأس باستمرار .. كلما هم بترك الفراش تهاوى فاقد الوعى .. عافت نفسه الطعام والشراب .. عافت الكلام .. عاده الطبيب ووصف له الدواء ..

خيم الحزن على البيت ، وأصابع الاتهام كلها تشير الى حسنية :

– هى السبب ..

تسوء حالة حسن ، يقرر الطبيب نقله الى المستشفى بعيدا عن جو الأسرة .. ليكون تحت رعاية طبية ونفسية مستمرة ،

ويوضع تحت اشراف طبيب نفسى .. يستمر علاجه فترة طويلة من الزمن .. يبرأ بعدها من مرضه ويعود الى البيت والعمل ، وفى تقريره الطبى عبارة بين قوسين «يعامل معاملة الأطفال» .. يحذر الطبيب والده من سوء المعاملة خشية اصابته بانتكاسه تقضى على حياته ..

عاد حسن ليجد البيت كله رهن اشارته .. ينفذون له ارادته .. يجيبون له كل طلباته .. عناية فائقة .. طاعة عمياء .. يعود الى شغفه بحسنية وعلى مسمع من جميع أفراد الأسرة ، يرون أن الحياء لا يعرفه الا الكبار .. أججت زيارة جميلة لحسن نار الغيرة فى قلب حسنية .. خلعت الحياء وبدت سافرة الوجه والجسد .. تبدل وتغير فى أثوابها .. تغير وتبدل من تسريحة شعرها .. أمضت معظم اليوم بجوار النافذة تتحدث الى حسن .. كلما هم بتركها نادته وعملت على الاستئثار به ، وحرمان جميلة من أى لحظة استئثار بزوجها ، انصرفت جميلة عنه ولديها شبه اقتناع .. أن الأسرة راضية ومقتنعة بأن حسنية سبب شفائه ، والدواء الموصوف له ..

* * *

ذات صباح طلب حسن من جميلة الاستعداد لمصاحبته الى

السينما .. عرفت حسنية .. أخبرها حسن بنفسه فطار صوابها .. صمتت لحظات تتلظى على بركان يزفر من قلبه الجمر .. صممت على منعهما .. لم يكن لها تدبير .. ولم يسعفها التفكير فيما تفعل .. وكأن القدر يساعد شيطانها على الاستمرار فى غيه .. ومن غير أن ترسم أو تخطط أتتها الرياح بما تشتهى ..

تحدثت الى حسن قائلة :

– وهل هذا وقت دخول سينما ؟

– فرصة .. لأنى لم أحجز التذاكر وحفلة الظهر غير مزدحمة..

– الدنيا حر ..

وقفت علياء الى جوار أمها تضربها بيدها :

– ماما .. أنا جائعة ..

دفعتها بذراعها :

– الأكل على النار .. اذهبى الى الشرفة الآن ..

انطاعت علياء لأمر أمها .. تسلقت الجدار .. استوت جالسة فوق الإفريز .. أخذت تتلهى بمشاهدة الصبية والأطفال يلعبون الكرة فى الشارع .. أقبل عبدالعال رأته علياء فى أول الشارع ..

صاحت منادية عليه :

- بابا . بابا ..

اختل توازنها .. سقطت فوق الحبل .. أمسكت بالحبال صارخة .. هرول عبدالعال صاعدا الدرجات .. دفع باب الشقة بكل قوته .. فوجئت حسنية به يندفع الى داخل الحجرة .. ارتفع صراخ النسوة فى الشارع ومن الشرفات والنوافذ .. ارتعبت علياء وهى معلقة تتأرجح .. شعرت بالحبال تمزق يديها .. أغمضت عيناها وسقطت .. كاد عبدالعال يلقى بنفسه وراءها .. لم يلحق بها .. كان يمكن انقاذها لولا صرخات النساء .. نظر عبدالعال الى علياء ممددة على أرض الشارع وأغمض عينيه .. هرول حسن الى الشارع وعبدالعال يصرخ ويبكى .. شج ملابسه وانهارت أعصابه .. انهال ضربا بكفيه على وجنتيه.. حمل حسن علياء وهرول الى الشارع الرئيسى .. استوقف تاكسيا وأسرع الى المستشفى .. هرولت أمه وحسنية وراءه .. ثم عبدالعال .. وعدد من أهل الشارع .. اجتمعوا جميعا فى حجرة الاستقبال .. علياء بين يدى الأطباء يجرون لها جراحة عاجلة .. دفن عبدالعال وجهه بين كفيه يبكى فى صمت.. أم حسن تتضرع الى السماء وتدعو لها بالنجاة .. حسن

وحسنية يدوران داخل الحجرة يحاول كل منهما ضبط أعصابه .. والتحكم فى الرعشة التى أصابت كليهما دون جدوى .. حسن يدخن السيجارة وراء الأخرى في عصبية .. امتلأت أرض الحجرة بأعقاب السجائر .. نظرات أم حسن تتهم حسن وحسنية معا بالجرم .. عبدالعال يشهق .. الوقت سلحفاة بطيئة الخطو .. سلحفاة معمرة تبلغ من العمر أرذله .. الباب الأبيض يفتح .. الطبيب يخرج متجهم الوجه .. يشملهم جميعا بعينيه :

– أين أبوها ؟

يقف عبدالعال مذعورا :

– البقية فى حياتك ..

الدنيا بكل مافيها ثقب ابرة .. الحياة بما تزخر به بعوضة .. تهالك عبدالعال ينشج بصوت مرتفع .. صرخت حسنية ولطمت وجنتيها .. بكت أم حسن .. تقدم شرطى من عبدالعال قائلا فى أسى :

– لوسمحت .. لابد من الادلاء بأقوالك ..

تدخلت أم حسن فى غضب :

– ألا تكفى مصيبة واحدة .. بيقى موت وخراب ديار .. الرحمة ياناس ..

- عملنا ياست هانم ..

يدفع عبدالعال حسنية اليه قائلا :

- هاهى أمها .. هى المسئولة عما حدث ..

يغادر عبدالعال المستشفى .. تخرج أم حسن لشراء مستلزمات الكفن .. يذهب حسن مع حسنية بصحبة الشرطى ..

* * *

الحزن الأسود يخيم على البيت .. الحزن يرسم بصماته على وجه حسنية الذابل .. الحزن الأسود يملأ عينيها بالدموع .. الحزن الأسود يصنع حائلا صلدا بينها وبين عبدالعال .. كل مافرضه الشرع على الزوج تجاه زوجته ممنوع .. الكلام الشرعى بينهما ممنوع .. يدخل صامتا .. يخرج صامتا .. يقضى أوقاته فى البيت وحيدا صامتا .. الصراع يدور على أشده فى رأسها .. لم يعد لها حياة .. حتما ستنفصل عن عبدالعال بعد انتهاء أيام الحداد .. لقد ضبطها متلبسة وابنتها معلقة بين الحياة والموت .. الناس يصرخون لانقاذها وهى لاهية بالحديث الى حسن .. عادت الى مخيلة عبدالعال السنوات الماضية ، اتضح له غفلته الطويلة .. اتضح غباؤه المستفحل .. فهم مؤخرا سر ابتعاد الناس عنه .. عرف سر النظرات

المستهزئة التى تتحاشى اللقاء بنظراته .. امتلأت نفسه باليقين .. أدرك سر وقوف زوجته حجر عثرة فى طريق زواج اختها ايمان من حسن .. ازداد يقينه وهى تدفعه دوما الى العمل في وردية الليل ليخلو لها الجو .. كان صعبا عليه وعنيفا أن يكتشف انه كان مغفلا ومخدوعا .. صدقت مشاعره قبل رحيله الى المدينة .. ليته ألغى نقله .. ليته ماجاء أبدا الى المدينة .. كان ككل زوج آخر من يعلم .. لولا اكتشافه ذلك بنفسه ماعرف شيئا على الاطلاق .. عزت عليه نفسه وعزت عليه قلة حيلته فاستسلم للبكاء .. ليله ونهاره .. وخيال علياء يتهادى أمامه ، يلاطفها وهى فوق ركبتيه .

* * *

انفصلت حسنية عن عبدالعال .. عادت الى القرية .. اختفت تماما من حياة حسن .. انهمك حسن فى اتمام زواجه .. بدأ الحياة بروح نشطة .. فجميلة تهيئ له الحياة السعيدة .. تملأ روحها المرحة الفراغ الذى شعربه .. نعم بالاستقرار والهدوء .. أهال التراب على الماضى كله .. نسى النهاية المؤلمة لحسنية .. شعر بالأسى لعلياء .. مر عام وراء آخر .. أنجبت جميلة ابنهما محسن .. أكثر جمالا من أمه .. ملأحياتهما بالبهجة والسرور ..

بدت له الحياة أكثر جمالا مما توقع ..

* * *

لم تستطع حسنية الحياة فى الريف .. كان الحنين الي المدينة يشدها .. شيطان المدينة يجذبها .. ضاقت ذرعا فقررت النزوح اليها والبحث عن عمل .. استطاعت بشهادة الاعدادية أن تلتحق باحدي الشركات .. استأجرت شقة صغيرة وأسستها بأثاث بسيط ، عاشت بضع شهور .. شعرت أثناءها بالخواء يزحف على حياتها .. والفراغ يحيط بها .. والشوق الجارف لابنها حمدى .. قررت أن تذهب الى أم حسن لترى ابنها .

التقت حسنية بأم حسن بعد الغياب الطويل .. تبادلتا القبلات المبللة بالدموع .. قضت حسنية يومها فى ضيافة أم حسن .. رأت ابنها حمدى الذى لقيها بجفاء مزق قلبها .. استفسرت عن أحواله مع زوجة أبيه .. لم ينبس ببنت شفة .. أخبرتها أم حسن برعايتها له .. تسهر على راحته .. تعتنى به .. اطمأن قلب حسنية بعض الاطمئنان ..

* * *

عاد شيطان الحب يعتلى رأسها .. دفعها الى مطاردة حسن من جديد .. تتصل به هاتفيا فى عمله .. تتوسل اليه بالكلمات

الناعمة .. والدموع تغلف صوتها .. تتوسل أن يمنحها فرصة لقائه مرة واحدة .. لم يجد فى تمنعه أمام اصرارها جدوى.. نجحت أخيراً فى انتزاع موافقته ..التقيا فى الموعد المتفق عليه .. صحبها الى كازينو هادئ على النيل .. جلسا ينظران الى بعضهما البعض .. بدأت بعرض لحياتها فى القرية .. ثم نزوحها الى المدينة والالتحاق بالعمل .. ثم صمتت وهو يستمع دون مشاركة .. عادت قائلة والدموع متحفزة فى مقلتيها :

– لماذا تتهرب منى ياحسن ؟

– أنا .. أبدا .. لكنى مشغول ..

– لا لست مشغولا على الدوام .. انك تقسو على .. لماذا امتلأ قلبك بكل هذه القسوة .. ؟

– لست قاسيا ..

– انك لاتدرك مدى ما أعانيه فى وحدتى .. لم يعد لدى سوى ذكرياتنا الجميلة استعيدها ابقاء على حياتى ..

– ماذا يمكننى عمله من أجلك ؟

– بيدك الكثير .. بيدك انقاذى من وحدتى .. بيدك رعايتى .. بيدك روحى .. لاتبخل علي باللقاء بين الحين والحين .. مازلت أحبك ياحبيبى .. أحبك أكثر من روحى ..

قال حسن مقطبا جبينه :

– حسنية .. كونى واقعية .. كنت أحبك فعلا .. أما الآن فقد تغير كل شئ .. لى زوجة .ولى طفل .. هما أولى برعايتى وحبى .. تعرفين أنى لم أصرفك مرة عن حبك لبيتك وأولادك ..

– لاتفـهـمنى بهـذه الطريقـة أرجـوك .. أنا لا أطالبك بالانصـراف عن طفلك .. فـقط أتوسل اليك أن تسـاعـدنى على الحياة .. تحمينى من نفسى .. اننى امرأة على شفا الا نزلاق .. احمنى من السقوط ياحسن .. لم أتصل بك الا لأجل ...

قاطعها حسن ..

– تروجىَ ياحسنية ..

ارتج عليها القول .. ابتلعت دموعها قائلة :

– أتزوج .. أتزوج بمن ؟ برجل آخر وأنا أحبك ..

ازدادت دموعها غزارة وهى تستطرد :

– ظننتك ستقول لى .. نتزوج .. يحب بعضنا الآخر .. نتزوج .. لن أكلفك شيئـا .. عندى شقـتى .. لن أنتزعك مـن زوجتك .. فقط أقضى بقية عمرى فى انتظارك .. سـأجد الحماية والأمان .. هه ياحبيبى .

فغر حسن فاه دهشة وقال بسرعة :

– أنا ياحسنية .. أنا أتزوجك ..

– أما كنت تتمنى ذلك يوما .

– كنت ..

– ها أنا حرة بين يديك .. طوع ارادتك .. توج حبنا باكليل من الورد ..

شمل حسن الاضطراب .. قالت حسنية مستطردة :

– اعرف مافى قرارة نفسك .. مازال حبى فى قلبك .. لاتكذب .. لقد تزوجت ارضاء لأهلك .. أنا على ثقة من ذلك .. انك لاتحبها .. لقد أحببتنى أنا .

دفن حسن وجهه بين كفيه وهى تلقى بكلماتها فى أذنيه كفحيح الأفعى :

– تزوجت بلا رغبة .. وأنا تركتك تتزوج .. لم يكن لنا أن نتزوج .. أهلك لم يقبلوا زواجك بمطلقة .. الناس تأبى على الرجل أن يتزوج لأول مرة بمطلقة .. حتى لوكان بينهما حب .. حتى لو تمسك كل منهما بالأخر ..

شرد حسن بذهنه الى البيت .. تراءت له جميلة وهى تهدهد

محسن .. تهز سريره الصغير .. تداعبه وتقبله .. تعلمه الكلام :

- بابا .. ماما ..

ينطق محسن حرف الباء بصعوبة .. يرددها .. تفرح جميلة .. ترفعه بين ذراعيها وتقبله .. تضمه الى صدرها .. يدق جرس الباب تهرول اليه .. تفتح له الباب زهرة فى ريعان الشباب .. متألقة أنيقة .. خفيفة مرحة .. يتلقى طفله بين ذراعيه .. يقبله .. يقبل جميلة .. لمحة خاطفة .. تدعوه الى طعام الغداء .. لمحة خاطفة أخرى تخلو المائدة .. لمحة خاطفة تساعده على خلع ملابسه .. لمحات خاطفة جديدة متجددة تملأحياته بالبهجة والتجديد .. هل يدير ظهره لجميلة ومحسن .. يدير ظهره لكل حبها .. لكل حنانها .. لكل رعايتها .. هل يدير ظهره لبيته .. هل يعود ليدفن نفسه فى الماضى .. الماضى الذى كاد يقضى على حاضره ومستقبله .. تراءت له جميلة وهى تسير الى جوراه .. متعلقة بذراعه متباهية به زوجا وحبيبا ..

هب حسن واقفا .. صرخ فى وجه حسنية :

- أنت امرأة مجرمة .. شريرة .. اغربى عن وجهى الى الأبد..

جز على أسنانه وهو يقول فى غضب هائل :

– ان كنت لاأحب زوجتى كما تدعين .. يكفى أن أحب طفلى .. طفلى هو حياتى .. هو مستقبلى أما أنت .. أنت الماضى الذى أكرهه ..

ثم تركها ممتقعة مبهوتة .. أسرع بالانصراف .. نادته وهي تحمل حقيبتها وتسرع فى أثره :

– حسن .. حسن ..

* * *

أوقف حسن تاكسيا .. ألقى بنفسه داخله .. وقفت حسنية تشيعه باكية .. لملمت عزمها ، استعادت رباطة جأشها .. سارت على الشاطئ .. الأفكار تتصارع فى رأسها .. الماضى يطارد الحاضر .. كلاهما يطارد الآخر .. المستقبل أمامها على امتداد الشارع مظلم لايبين منه شئ .. أدركت فداحة خسارتها .. البيت .. الزوج .. علياء .. حمدى والجفوة التى امتلكت قلبه نحوها .. الحب .. عجز عقلها عن استيعاب الصراع كله .. أفلت الزمان منها فاندفعت متخطية الحاجز الحديدى .. وألقت بنفسها الى أحضان الماء ..

* * *

قدم حسن جريدة الصباح الى جميلة وبها صورة لحسنية

وخبر العثور عليها طافية فوق سطح الماء .. قال فى تؤدة :

- هل يمكن أن يحدث هذا ؟

تطلعت جميلة الى الجريدة .. ثم تطلعت اليه بعينين مغرورقتين بالدموع .. قالت :

- كان لابد لها أن تدمر نفسها .. حمدا لله .. ذهب الكابوس الذي كان يجثم فوق صدر حياتى .. حمدا لله ..

أمسك حسن بكتفيها قائلا فى دهشة :

- جميلة ..أى كابوس هذا ؟

- كابوس الخوف ياحبيبى .. كنت خائفة أن تنتزعك منى .. خاصة وأن مابينكما ..

وتوقفت عن الاستطراد .. قال حسن :

- أكنت تعرفين ؟

- كل شئ ..

- من أخبرك به ؟

- بعض الناس .. بعض الذين أرادوا أن يفرقوا بيننا قبل الزواج ..

تراجعت الى الوراء قليلاً وقالت متسائلة فى خوف :

- حسن .. ألم يكن لك يد فى انتحارها ؟

- لا .. لا يعرف أحد شيئًا عن لقائى بها ..

جميلة غاضبة .. أول مرة تغضب فيها .. أكسبها الغضب جمالا فوق جمالها وتورد وجهها بحمرة الدم وهى تقول :

- كنت تلقاها اذن دون علمى ؟

كلا .. كلا ياجميلة .. لقاء واحد عنفتها فيه .. كان لقاء اليأس لها .. لذلك انتحرت .. لم يعد لها فى الحياة مأرب .. أنت حبى ياجميلة .. أنت مستقبلى .. أنت حياتى .. ينبغى ألا تعطى لذلك أية أهمية .. هل يمكن أن نعود الى سعادتنا ، الى صفائنا ووئامنا ؟

دفنت جميلة وجهها فى صدره.. داعب حسن شعرها وهو يستمع إليها قائلة :

- أجل ياحبيبى ..

رفعت رأسها وابتسمت فى رقة وعذوبة .. قالت متسائلة :

- فى أى يوم نحن ياحسن .. ؟

تطلع حسن الى السقف .. قال مبتسما :

- اليوم .. آه .. اليوم عيد زواجنا .. و ..

حملها بين ذراعيه وقبلها.. جذبها وراءه الى حجرة النوم .. أحاطاب محسن فى فراشه، صاح حسن مسرورا وهو يداعبه فى صدره :

– ايه ولد .. انهض ياخم النوم .. اليوم عيد زواج بابا وماما هيا .. قم ..

فتح محسن عينيه .. أغلقهما ثانية وابتسامة ملائكية ترتسم على شفتيه .. حرك قدميه وركل بهما الهواء .. فتح عينيه ثانية وأمسك برأسيهما المتقاربين حول وجهه يطبعان قبلة أب وأم..

(تمت)

* * *

* جمعه محمد جمعه

* نشرت أعماله فى الصحف والمجلات المصرية والعربية بكل من السعودية والكويت وسوريا ولبنان وتونس والامارات العربية المتحدة والمجلات العربية بلندن وباريس

* صدر له :

١- الأبيض والأسود قصص عام ١٩٧٧

٢- قلب الام قصة ١٩٨٣

٣- مهزلة عائلية مسرحية ١٩٨٧

* حصل على جائزة من مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٧٥

* حصل على جائزة من نادى القصة بالقاهرة عام ١٩٧٧

* تحت الطبع :

- حياة رخيصة قصص - المجلس الأعلى للثقافة

* أعمال أخرى :

١- الأيدى الدافئة قصص

٢- المراهقون رواية

صدر من هذه السلسلة

اصدارات الهيئة العامة لقصور الثقافة

* ضمن اهتماماتها المتعددة بالنشاط الثقافى بمختلف أشكاله، تعنى الهيئة بإصدار عدة سلاسل من الكتب هى:

أولا: سلسلة «أصوات أدبية»

- مخصصة لإبداع أدباء مصر فى كل مكان فى الشعر، فى القصة فى الرواية.

- تصدر اسبوعيا.

ثانيا: سلسلة «كتابات نقدية»

- تواكب الإبداع الأدبى بالدراسة والتحليل، ولاتغفل النظريات النقدية والعربية والعالمية، وتفتح صدرها لكل فكر جاد يتسم بالطابع النقدى

- تصدر شهريا، في منتصف كل شهر.

ثالثا: كتاب «الثقافة الجديدة»

- يتناول حياة أبرز المفكرين وأعمالهم وأدوارهم فى إضاءة العقل والوجدان ودراسة تحليلية لإنجازاتهم فى خدمة الفكر والإبداع العربى.

رابعا: سلسلة «مكتبة الشباب»

- تأخذ على عاتقها مهمة التثقيف العام بتقديم كتب مبسطة تتناول مختلف ألوان المعرفة.

- تصدر أول كل شهر

خامسا: كتاب الأدباء

-يهتم بتقديم الواقع الثقافى والإبداعى لكل إقليم على حدة ويُعد بمثابة بانوراما كاشفة لحركة الإبداع الأدبى فى أقاليم مصر.

- يصدر شهريا

رقم الايداع ٩٤/١١٦٠٨

الأمل للطباعة والنشر ت: 3904096